رشيد ميموني

شرف القبيلة

رواية

ترجمة

الحبيب السائح

النسخة الأصلية المعتمدة في الترجمة من نشر: لافوميك، الجزائر، 1990.

مقدمة الطبعة الأولى

أردت لهذه الترجمة أن تصدر كما كان رشيد ميموني يريد لها أن تكون، بالبناء نفسه، بالتركيب الشفهي ذاته، وبالسخرية السوداء عينها.

فإني حرصت على إعادة نقل "شرف القبيلة" من لغة فرنسية محكية، على لسان آخر شيوخ القبيلة الشاهد على الأفول، إلى العربية؛ بما يترتب على ذلك من خلخلة مقصودة للأبنية النحوية المعيارية والتي تظهر في الترجمة كأنها هفوات في تنظيم التراكيب، وليس الأمر كذلك. فإني جربت أن أعيد صياغة تلك الأبنية بما يتلاءم مع وضع الجملة الفعلية خاصة، غير أنني عاينت أن النص كان سيأخذ منحىً آخر لا يريده صاحبه.

وكان علي أن أختار بين ترجمة النص إلى روحه بالإبقاء على نسقه الشامل، إلا ما تعلق ببعض زوايا الظل فيه والتي حتمت شيئا

من الاجتهاد في إنارتها لصالح الأمانة، وبين إعادة كتابته بما يغري كاتبا مثلي بنقل نص غيره إلى اللغة التي يكتب بها، ومن ثمة خيانته مرتين: الأولى حين أضع بينه وبين قارئه شاشة من جهاز كتابتي الشخصية، حاجبا تماما سياقات النص الأصلية. والثانية إذ أتساهل أو أتردد في اعتبار النص ملكية إبداعية لصاحبه.

سيلاحظ القارئ إبقائي على مسميات وأوصاف ونعوت كما نقلتها من اللغة الأصلية التي كتبت بها إلى العربية التي تبدو، أول وهلة، مخالفة أحيانا ما هو متواضع عليه؛ ليس سهواً ولا عجزاً ولكن عمداً؛ لأن رشيد ميموني كان، بلا شك، يحب أن يبلغ خطابا محددا؛ فإن القاموس لم يكن ليعجزه في تسمية الصلاة بدل القداس، صلاة الجنازة بدل صلاة الغائب، المجاهدين أو الجنود بدل رجال الليل وأصحاب الجبل، أو اللغة العربية بدل لغة القرآن.

وأخيرا، سعيت جهدي أن أحفظ للرواية خصوصيتها من خلال نقل مسميات كثيرة إلى اللهجة الجزائرية من غير أن أُفقدها صرفها العربي، ولكن أيضا من خلال المجازات التي تفهم في سياق روح "شرف القبيلة".

ح. س

Toutes les histoires s'approfondissent en fable.

Valéry

Telle est la Mère des humains pour ce si jeune
Epoux entre ses bras instruit à commencer
Ici et non du lieu dont ils furent chassés.

Pierre Emmanuel

الفصل الأول

ـــ يجب أن تعلموا أن الثورة لم تنسكم.

كذلك أعلن إلينا عند وصوله.

كنا لا نعلم حينها ما الذي كان ينتظرنا.

لكني لا أستطيع أن أبدأ هذه القصة إلا بذكر الله العلي القدير خالق كل خلق. المحدث لكل حدث وملك كل قضاء وقدر. في كتاب العالمين العظيم أحصى كل شيء.

إليه أتوجه كي يقبل قصتي. ولما كان الأمر ليس حكاية فإنه ليس ضروريا انتظار نزول الليل للبدء في الحكي خشية أن يولد أبناؤنا صلعا. ستستمع لي دون أن تفهم ما أقوله. لغتنا عفا عليها الزمان و لم نعد سوى بعض الباقين الذين يستعملونها. ستختفي باختفائنا. وهكذا سينسحق ماضينا وكذلك تذكارات آباء آبائنا. ولن يعلم أحد ما كان عليه، منذ قرن ونصف، وجود سكان هذه القرية.

أفسح لآلتك أن تتشرب كلماتي.

نحن اليوم متروكون لقدرنا على ضفة النهر الجارف الذي

تعتقدون أن جريانه سيوصلكم إلى بر أمان.

إننا نعلم، لكي يجد الشجر عافيته وقوته في الربيع الجديد، أنه لا بد من قطع بعض أغصانه.

نحن نقبل ذلك.

لكن رؤيتكم سيصيبها الحسر.

غير أنكم عندما تعون أنكم عدتم إلى الأعلى لتجدوا هذا الجزء الأساسي، الخفي فيكم، ستروحون تنبشون هذه الأشرطة التي تعيد إحياء أصواتنا. ولكن، لكي تجدونا، يجب عليكم مسبقا أن تتعلموا فك لساننا.

إننا ننتظركم على شفا مشقتنا.

أفسح لآلتك أن تتحرك.

كل شيء بدأ بشهر يوليو الذي قهر قيظه الإنسان والحيوان.

إن العجزة من رجالنا الفارغين من كل شغل يظلون خلال يومهم يزحفون من ظل إلى آخر محاولين الاحتماء من أشعة الشمس الأشد قسوة من لسعات الزنابير. الحرارة تجعلهم في حال من التراخي لا تسعفهم حتى على تبادل الحديث ويكتفون عن ذلك بإشارات من رؤوسهم كإجابات عمن يأتي فيلقي عليهم السلام. نساؤنا، المشتهر عنهن أنهن نشيطات، لا تتجرأن على المغامرة إلى أحواش بيوتهن التي صارت خانقة أكثر من السطوح وتستنفد منهن مللهن الذي يعبرن عنه بحركات ذابلة تثير الخيال. إن الأطفال، الأطفال أنفسهم، الأطفال جميعهم، من العادي منهم إلى الأكثر حركة من نمل موسم الحصاد، يفضلون الالتجاء إلى ظل أشجار اليوكالبتس العظيمة. نحن نفترض أن مراهقينا يكونون يكدحون في الحقول لأن العادة عندنا أن

أبا محترما هو الذي يكف عن العمل بمجرد أن يصبح ابنه الذكر البكر في سن يسمح له بأن يخلفه. وفي الواقع فإنهم يقيلون هادئين تحت أشجار الزيتون ولا يستفيقون، تحت لسعات الشمس، إلا ليزحفوا نحو الظل الذي انتقل. إن الذباب نفسه كفّ عن التحرش بالأحياء، ولا شك أنه خامد في مكان أكثر لطفا.

كان الزوال، والقرية تبدو تحجرت.

فكنا إذاً شاهدنا، في آخر انحراف في الزقاق الذي يقسم في دلال دشرتنا، خيال علي ولد علي، البوسطاجي مضطربا. كان يتقدم، بخطوات سريعة، نحو ساحة التينات الثلاث التي كان يستظل تحتها شيوخ الجماعة. اضطرابه الغريب حيرنا بقدر ما أثار فضولنا، لأننا اعتبرنا دائما ولد علي رجلا متعقلا ورشيدا، يعرف كيف يتصرف في الظروف كلها، خاصة وأن حرمته تقوّت بكونه موظفا يتقاضى راتبا شهريا مضمونا ومنتظما، في الصيف والشتاء، سواء أأمطرت أم أثلجت، أم أحرقت الحرارة محيطنا المألوف.

إن جورجو، الذي تخلى عن دكانه الذي اجتاحته جحافل الذباب في جو أقل ثقلا، عدل خفيفا من صدره وركز على المرفق.

ــ ما الذي يمكن أن يكون جعل المقدام ولد علي في اضطراب؟

فأثار السؤال فضول بعض العمائم الذين كانوا يحاولون القيام شبراً ليروا قدوم رجل الرسائل.

ولأن جورجو متضلع في تحليل الانفعالات الإنسانية راح يتأمل التهييج الزائد لحامل الزي، ثم خلص بفقهية:

ــ إن الأمر لا يتعلق سوى بشيء واحد: يمكن أن يكون

تلقى ردا إيجابيا على طلبه.

ـــ ما ذا تقصد؟

إن هواة البرودة يتلقفون كل حدث يأتي ليقطع رتابة الأيام المتشابهة وتتابعاتها المطمئنة التي تبتلع بشكل مختلس كل وجود للحياة. كلهم كانوا ولدوا في هذه القرية وفيها كبروا، يرى بعضهم بعضا ويتبادلون التحيات صباح مساء. وكلهم يصبحون على دراية بأي حدث يقع مهما يكن شأنه. فإن كل واحد يعرف عن الآخر تفاصيل حياته الدقيقة؛ حتى الحميمة منها، وكل واحد منهم يستطيع أن يكرر عن ظهر قلب مسار حياة ولد علي الخاصة، ونسب زوجته، وذكر أعمار أبنائه، وتحديد عام توظيفه في البريد، وتدقيق استعمال زمنه اليومي.

نحن نعلم جميعا أن البوسطاجي يدخل، في الساعة التاسعة، إلى الحجرة التابعة للملحقة البلدية التي يتخذ منها مكتبا له. وهذا وحده يجعله يتميز من سكان القرية أجمعين؛ لأنه الوحيد من يحوز امتياز ألا ينهض إلا بعد طلوع الشمس، سواء أقصرت الأيام أم طالت. إنه يقضي نصف ساعة في انتظار زبائن محتملين. وهو الأمل الذي لا يتحقق دائما؛ لأن الرسائل الوحيدة التي يختم على طوابعها بكل حماس كانت هي التي يكتبها بنفسه لمرسِلِين لا يحسنون لغة الرومي. إن تلك الرسائل كانت تقتصر مواضيعها غالبا على طلب حق إرسال حوالة من ابن مهاجر إلى فرنسا، البلد الذي يقال عنه إن الحياة فيه مريحة ولكن كم هي مضطربة. جورجو يمكنه أن يشهد على ذلك؛ هو الذي قضى عشرين عاما في باريس.

ـــ إنه بلد الجنون.

لم يفهم جورجو ما الذي أصابه، يوم جاءه دركيان وقاداه بينهما، بالحديد في يديه، نحو مركز المفرزة، بينما كان ابن قايد سيدي بونمر خلفه يستهزئ منه لأنه تجرأ على التحدي، إلى أن شُطب من الجندية وخرج مرتديا ملابس مدنية قديمة بلا درهم واحد في المدينة الشاسعة الممتدة على السهل كما العشيقة الظامئة على سريرها، تاركة نفسها تتغذى على احتفال نقالات متوقفة على طول نهر مصراني وضعيف يلهو بمضاعفة تعرجاته كأنه يخشى الأجل البحري حيث تختلط المياه. كان ضائعا في تلك الشوارع العريضة ذات الواجهات الواسعة لدكاكين تعرض بلا خجل جميع محتوياته، كأنها إنما لإغراء الزبائن، مضاءة بمصابيح مشتعلة طول الليل، على حركة سيارات فوضوية وضاجة، وتنزّه نساء، أكثر عددا من الرجال، بلا حياء ولا خجل، لا يستر القسم الأعلى من وجوههن سوى غلالة رقيقة، واللائي يجلسن في شرفات المقاهي ويتسامحن متغنجات في التملي منهن. فقد أسر إلينا جورجو أنه سحرته فضائل الطموح والصبر لدى سكانها الذين يجرؤون على إنشاء عمارات صلبة، كأنما لتبقى إلى ما بعد الزمن، وضخمة يعرفون أنهم لا يستطيعون إنجازها إلا بحياة الرجال، الذين كانوا حفروا تحت المدينة أروقة شاسعة بحيث تسير فيها قطارات بكاملها تتعاقب وتتقاطع بلا توقف وتغطس في النهر من غير أن تبتل أبدا. وقال لنا جورجو إنهم صنعوا بوفرة الحديد والصلب إلى حد أنهم يبدون لا يتحركون إلا في عالم من المعدن.

سألناه:

ـــ ما الذي أثارك أكثر في بلد الجنون؟

ـــ أشياء كثيرة.

ـــ وما ذا أيضا؟

ـــ الماء.

ـــ الماء؟

ـــ أجل.

ـــ فقط؟

ـــ أجل، الماء في كل مكان، إسراف سائل، وفرة مائية، أودية، بحيرات، أحواض، نوافير، وأكثر من ذلك أنهار كبيرة وصغيرة تتلاقى وتنفصل ثم تلتئم أوسع من العبّارات والمراكب الثقيلة التي تصعد معها أو تنزلها والتي حين تتقاطع بينها تطلق صفاراتها تحية. وكل تلك الأقنية التي ترتفع جسورها أو تتحرك لتترك العبّارات تمر، وكل تلك الآلية الغريبة الأكثر تعقيدا من أي سورة من سور القرآن المعقدة، والتي كأنها تحركها بالسحر فتجعلها تصعد وتنزل. وكان يصدمني أن أعاين أن تلك المياه كلها تذهب في تراخ لتضيع في المحيط من غير أن يُصدم أيٌّ كان. جزء من مليار من هذه الكتلة لترطيب حقولنا الحجرية الجافة! اشربي إذن، يا أرضي الظمأى ولتندمل جراحاتك كي نستعيد الوادي السعيد والخضرة التي تريح الروح. ولترتوي، أخيرا، يا صدورنا!

فإن جورجو لم يحتفظ من مغامرته العسكرية الإجبارية سوى بتذكار مهانة ملتبس، فوضى لا توصف، وتسكع من عراء إلى عراء، من مركز إلى مركز، من ثكنة إلى ثكنة، وانتظارات متوالية، الحمل على الظهر، السلاح عند القدم، ولغط من الأوامر والأوامر المضادة. إن الشاحنات المؤمّلة كانت تقضي أياما عديدة كي تصل. وكان

الجنود من صف الضباط بدأوا يهينون المجندين من أجل تسريع وتيرة الصعود، وكأنه من سرعتهم هم سيتحدد مصير الحرب. ولكن المركبات، بعد أن ملئت، حرنت عن التحرك، وبعد انتظار طويل أخذ الجنود يقفزون أرضا ليستأنفوا سيرهم، يشاهدون المركبات الثقيلة تتباعد فارغة في الاتجاه نفسه. وكانت المحطة السككية التي اجتيحت ليلا استقبلت أخيرا قطارا مملوءا عن آخره جنودا أكثر ضياعا أمروا بالنزول ثم بالصعود ثم بالنزول. فخلال الزمن الضائع في ثكناتهم كان يتم تدريبهم على المارشة العسكرية بتعليمات تحثهم على تبني صلابة أوتوماتية. وبعد العديد من الحوادث الطارئة فإن المجموعات العسكرية وصلت أخيرا إلى الميناء حيث كانت الباخرة الكبيرة في الانتظار بهدوء البقرة. وانتهت إلى أنها قبلت في بطنها المجموعات اللامتناهية من المجندين. فإن أول رجحان من الباخرة كان كافيا أن يزرع الذعر في نفوس حليقي الرؤوس من المجندين المتراكمين في قعرها. وكانوا رأوا بتطير الضفة تبتعد وخشوا أن يحسوا قوقعتهم الضخمة تغطس تحت المياه. فالكثير منهم أخرج ما حملته أحشاؤه. وأما الذين هربوا من تلك الروائح فإنه كانت لهم الشجاعة على الصعود إلى الجسر ليعرفوا الذعر من مشهد الشساعة المائية التي تحيط بهم، وراحوا ينتظرون أن تنبعث إلى سطح الماء تلك الوحوش البحرية التي يحكيها الأجداد البحارة في سرد رحلاتهم التي كانت تقودهم في مغامرات إلى أخطر البحار. ولكن أحفادهم الهيّابين كانوا أكثر حكمة منهم معتبرين أنه من غير المفيد في شيء الطواف بالعالم لاكتشاف أراض غير معروفة، بله دراستها لكشف القوانين المتصلبة والمخبوءة التي تتحكم فيها. كان ذلك التعطش

للمعرفة بمثابة بدعة تنافسية لعلم الغيب. فقرروا إذن أن لا يذهبوا لمواجهة أسرار البلدان غير المكتشفة، كما اتفقوا على إغلاق تلك الكتب المدنسة ثم حجبها في مكانين مختلفين سريين ولا يمكن ولوجهما. ثم عاشوا في رفاه من يقين الإيمان رافضين الالتماسات والأسئلة المقلقة. ثم وجد أبناؤهم، قرونا بعد ذلك، بخوذاتهم وجزماتهم يتموجون فوق تلك البحار المنسية، مقودين برغم أنوفهم نحو قدر مجهول عنه كل شيء.

ولدى الوصول إلى الميناء لم تلفظ الباخرة سوى أجسام خاملة عديمة الشكل. كان يلزمهم عدة أيام ليستعيدوا لذة الأكل وأرضية مستقرة تحت أقدامهم. ثم استؤنفت المسيرات المنهكة، الانتظارات المتكررة، القطارات المدللة، الشاحنات الغارقة في لطخات سميكة من الوحل. ثم إن جنود الكتائب مروا عبر قرى متتالية خامدة مفعمة بالرمادية لدرجة أنها تحبط كل ابتسامة وكل أمل. ثم تموقعوا في قمة رابية وحفروا خنادق، هيأوا ملاجئ واندسوا تحت الأرض.

ـــ لم أر أي شيء. كذلك أكد لنا جورجو. إن لم يكن المدفع الذي يقصف فوق رؤوسنا، حتى إننا خلنا أنفسنا مدعوين إلى لعبة الأرانب.

بعد النصر، كان جورجو، لما شُرع في إعادة بناء فرنسا المجتاحة، وجد عملا في مؤسسة بناء عند جورجو وأولاده بالضبط، حيث بدأ عاملا يدويا بسيطا، يدفع النقالة بعد النقالة المحملة بالخرسانة، في الثلج وفي البرد حتى تتحول الأصابع شبه فروع كرْم بعد تقليمها.

ـــ أقولها لكم بكل ثقة، إنني خلال العشرين سنة لم أتذلل.

تعلمت أن أعيش عيشتهم. شربت خمرهم وأكلت لحم خنزيرهم، وحلقت شاربي وزنيت مع نسائهم. وليغفر لي ربي. ونسيت حتى وجود القرية. إن الغربة تسحق الذات مثل مدحاة من مداحيهم الوحشية.

طلبنا منه:

ـــ كيف تعتبر نفسك؟

ـــ تعودوا على احتقارنا لأننا كنا فقراء ومغلوبين على أمرنا، وعلى السخرية منا لأننا لم نكن نعرف كيف نستعمل ماكيناهم، وعلى النفور منا لأننا لا نحب منتوجاهم ولا طبخهم.

ولأن أخباره انقطعت عنا فإننا كنا نعتبره في عداد الموتى في بلاد الكفار خلال الإعصار الهائل الذي دفع الأقوياء في العالم إلى الاقتتال بوحشية. ولكن في يوم من الأيام نزل فجأة من طاكسي محمل بحقائب مملوءة أشياء عجيبة: جهاز يثبت الصور على الورق رغم المكروه، خيوط من نحاس ملتقطة للأصوات البعيدة والتي سمعناها جميعا، لمبة تضيء من غير لهيب. ولكن عقله كان محشوا بأفكار سخيفة وغير معقولة، كما أدركنا لاحقا.

وهكذا، أشعرنا بأنه يشعر بالفضيحة لمعاينته أن القرية بلا ماء حنفيات ولا كهرباء.

ـــ ماء الحنفيات؟

ـــ أجل، في بيتك أنت، تدير زرا، وفي انبثاق عجيب يتدفق أقوى من السائل الصدفي اللون الذي يقذفه المراهق عند ولوجه امرأته الأولى.

ـــ في عيننا لنا ماؤنا المعدني العذب الذي يغنّي أكثر سعادة

من بكر ليلة دخلتها.

ـــ والكهرباء؟

ـــ فيم سيفيد ذلك؟

ـــ لإضاءة الطرقات، وتشغيل الأجهزة المترلية.

ـــ أي طرقات، أي أجهزة؟

لحسن الحظ، فإن لعب جورجو الشيطانية سرعان ما تهاوت وكفت هكذا عن تشويش عقول شبيبتنا المتعطشة. ولكن ما كان وضع في رأسه بدا أكثر مقاومة. لذلك شجع منذ البداية ولد علي على تقديم طلبه، ثم مساندته في مراسلاته العديدة التي ذكّر بها.

واصلنا استحسان ولد علي، برغم ازدواجيته. كنا اعتقدنا أننا فقدنا الطفل الذي كانَه لما قرر والده الغريب الأطوار أن يجعله تحت كفالة عمّ اللاجئ إلى سيدي بونمر بسبب قضية أخلاقية. إن والد علي حرص على أن يدخل ابنه المدرسة الأجنبية، وكأن أحد أبناء الإسلام لا يكتفي بالتعاليم التي يقدمها شيخنا الذي يحفظ سور الكتاب الكريم من الأولى إلى الأخيرة. ولكن والد علي كان دائما يريد التميز، الأمر الذي يشكل عندنا أخبث آفة. وعاد إلينا الولد بعد سنوات سليم العقل كم كنا نظن. وفي الواقع فإننا لم نتبين إلا لاحقا أنه زُرع في عقله بذور الحداثة الأولى الماكرة المتلفة.

كرر الإمام الذي كان راقب ساعته معاينا أن في وسعه ساعة من الوقت يقضيها قبل ساعة الصلاة.

ـــ ما ذا هناك؟

فأجاب جورجو:

ـــ الأمر يتعلق بطلبه إدخال هاتف.

فتنازل اهتمام الحضور مثل بالون انفش.

للحقيقة، فإن سكان زيتونة لم يهتموا أبدا بحكاية إدخال الهاتف. وهم مرتاحون تماما ما داموا يستطيعون إرسال رسائلهم القلية واستقبالها والتي من أجلها يركب علي ولد علي دراجته في الساعة التاسعة والنصف بالضبط قاطعا مسافة خمسة كيلومترات إلى طرف الطريق الكبير لينتظر قابض سائق الحافلة التي تربط سيدي بونمر بمدن السهل فيسلمه الصادر ويتسلم منه الوارد. وعند عودته إلى زيتونة، كان يكفيه أن يتوجه إلى ساحة التينات الثلاث ليقوم بالتوزيع. وكان من عادته بعد ذلك الالتقاء بجورجو ليناقش معه مشاريع التحديث فيوافقه أو يخالفه مرتكزا على تجربته الطويلة في البلاد الأجنبية. لم يكن الحوانتي ترك يوما البوسطاجي يغادره من غير أن يحرضه.

ـــ لا تترك هؤلاء الدينصورات غير المبالين يثبطون من عزيمتك. لقد فقدوا نهائيا الأمل في المستقبل ووصلوا إلى نقطة الشك في ماضيهم.

كان علي ولد علي خفف من مشيته عندما اقترب من ساحة التين. وكان يبدو من تحت إبطيه لطخات ندية وكان وجهه القرمزي يتصبب عرقا. نزع قبعته وأعلن:

ـــ هل تعرفون الجديد؟

سؤال مفروغ منه. فسكان القرية منذ زمن كانوا كلفوه، زيادة على وظيفته، أن يعلمهم باختصار بما يقع من أحداث تقض العالم، لأنه كان الوحيد من يقرأ الجريدة التي يأتيه بها سائق الحافلة مع البريد.

فطلب إليه جورجو:

ـــ سيدخل الهاتف؟

ـــ كلا، إنه شيء أهم.

ـــ حرب جديدة إذاً؟

فما هي إلا سنة تقريبا بعد عودته المرتجلة إلى زيتونة حتى كان جورجو أحس بهلع كبير أن البلدان المجنونة عاودت الاقتتال.

ـــ يريدون أن يبيدونا إذاً؟

ولتخوفه من أنه سيجند مرة أخرى، فإن جورجو هرب إلى زيتونة ليختبئ في المدينة لدى مجند سابق كان مثله شارك في الحملات السابقة. وقال أحدهما للآخر تزامنيا:

ـــ هل تظن أنهم سيستدعوننا؟

فطمأن أحدهما الآخر مثيرين عمرهما والتضحيات التي قدماها.

ـــ الروامة أناس عادلون. سيختارون ضحايا جددا لحربهم الجديدة.

ثم ظهر جورجو في زيتونة أشهرا بعد ذلك.

ـــ هل بحث عني رجال القايد؟

فطمأناه.

فأصر:

ـــ حرب جديدة إذاً؟

ـــ كلا، إن الأمر يتعلق بشيء آخر تماما: زيتونة ستصبح مقر ولاية.

الفصل الثاني

أعلن إلينا لدى وصوله قائلا:

ـــ أستطيع أن أقول لكم إني لا آتيكم فارغ اليدين.

لم يكن الذي هيّج ابن علي، أيما تهييج، لينتزع اللاجئين إلى ساحة التين من خمول لامبالاتهم، باستثناء محمد الذي سرعان ما جذب ساعي البريد وخلا إليه ليطلب منه أن يشرح له الأمر.

ـــ هل هذا يعني أننا لن نعود تابعين إداريا لسيدي بونمر؟

دشرتنا ظلت دائما ملحقة إقليميا بالقرية المجاورة. وفي زمن الاستعمار لم يكن متصرف البلدية المختلطة الحصيف، الذي يعاين برضىً تام أننا كنا ندفع ضرائبنا بصفة منتظمة، حاول أبدا أن ينحشر في شؤوننا، فكنا إذاً نواصل تمتعنا بالنادر من الامتياز الذي يتيح لنا أن نبقى في مواجهة مصيرنا بلا عون.

ولكن بعد شهور من الاستقلال جاء من مكان ناءٍ من

أفهمنا أنه أصبح علينا أن نمارس سيادتنا الجديدة المنتزعة انتزاعا بالكفاح، وأن نقترع لننتخب رئيس بلدية ومجلسا بلديا يتكفل بتسيير الشؤون العامة...في سيدي بونمر. كما أننا دعينا إلى تقديم مرشحين، وعُيّن مواطننا محمد بالإجماع.

وكان محمد، منذ مراهقته، أبدى انجذابا غريبا نحو ما هو سياسي، برغم أنوف كبار الجماعة كلهم. وبمجرد إعلان وقف إطلاق النار بين أصحاب الجبل وبين فرنسا انتقل إلى سيدي بونمر وانخرط في سلك القوى المحلية المنشأة حديثا، واثقا من أنه لم يعد هناك أي خطر على حاملي الزي. فأسابيع بعد ذلك رجع إلى زيتونة يختال في زي الكاكي وقبعة من نوع "كيبـــي" كأنه واحد من العسكر الذين كافحناهم. كان مظهره مثيرا للسخرية. وفهمنا حينها أن الرجل لا يتمتع بشيء من الكرامة ولكنه يملك كثيرا من الطموح لمقايضته لباس آبائه بالزي الذي تنكّر فيه بشكل فاحش. وبما أنه كانت له طلعة صافية وعينان بلون الماء فإن الجبليين، الذين كانوا يصادفونه في الطريق، نظروا إليه دائما على أنه رومي. ونوى بعض منهم أن يحز له الرقبة. ولحسن حظه فإنه كان سريع البديهة في الجواب، فإن المتأخرين من المنتقمين، وهم معجبون بخطئهم، كانوا يقدرون نبر لهجة منطقتنا الذي لا يحاكى. على أن تعاليق شيوخنا الحادة لم تكن تني تثخن المرتد، ولكن الذي أدهشنا فيه هو ما يثيره من رغبة جامحة لدى شبابنا وإعجاب. حتى إن بعضهم كان سيتبع طريقه لولا صرامة آبائهم التي حالت دون ذلك.

نشأنا في كنف الوفاء وها نحن نمارس الجحود. إن أجداد محمد كانوا مبعدين من كل مكان منبوذين فحضنتهم قبيلتنا. وبعد

أجيال نسي كثير منهم أصوله واعتبرها أصولنا. ولكن مع الوقت ظهرت الردة من جديد. فكبار جماعتنا أحقّوا تماما إذ نصحوا لنا بالتمهّل. فإن وضع محمد الجديد أذهل عذراء القرية التي كايد والدها إلى أن أطاح بتردده. ووقع الزواج. وأجدني ملزما بالحقيقة لأقول إن القران كان سعيدا. وإن محمد، برغم رغبته في النجاح، ظهر زوجا طيبا ثم رب أسرة لائقا.

وكان محمد، بعد زواجه بأيام، عاد إلى ثكنته، ثم فاجأنا بظهوره في القرية شهورا بعد ذلك في لباسه المدني لينكبّ بسرعة على إشعال موقد مقهى والده. و لم نعلم إلا لاحقا، فإن ابن علي هو الذي أخبرنا، سبب العودة الطارئة إلى الحضن العائلي. فإن قادة الكفاح ضد المحتل الأجنبي، إذ تحقق التحرير، لأنهم لم يستطيعوا التوصل إلى تسوية ودية لأسبقية طموحات كل منهم، قرروا الاحتكام إلى قوة السلاح. وخامر بعضهم فكرة غير معقولة وسخيفة في اللجوء إلى ذلك السلك المنشأ أخيرا المشكل من عناصر كانوا يعتقدون أنهم سيستفيدون من مكانة الذين كانوا في الجبل من غير أن يلمسوا يوما بندقية أو يطلقوا رصاصة. كثيرون فروا من الجندية، وكان محمد منهم.

ظاهريا، لم يكن محمد تأثر بما حدث له؛ فقد قرر لاحقا الانخراط في الحزب وشرع يقوم كل أسبوع برحلة إلى سيد بونمر لحضور اجتماعات الخلية. وكان كلما عاد حاول أن يجلب إليه اهتمامنا حول ما تم تناوله؛ غير أن أحدا منا لم يكن أولاه أدنى اهتمام حتى جورجو نفسه الذي كانت له أحيانا أفكار فريدة هي مخلفات من جراء إقامته الطويلة في فرنسا. إنه إذاً ابن صاحب المقهى مَن زف

إلينا قدوم أفراد الوفد الآتي من مكان ناءٍ. فبمساعدة بعض المراهقين هيّأ لهم منصة شرفية صغيرة. ولكن، لأن أحدا منا لم يكن يملك كراسيَ، فإن المحمِّس حسم أن يكسر باب فيللا الكولون مارصيال المهجورة. أمام ذلك الفعل، الذي لا يأتيه سوى قطاع الطرق، كنا فهمنا أن قلب هذا الرجل يعج بعقارب الطموح.

ذبحنا بعض العتزات على شرف أولئك المسئولين. ولكننا أحسسنا بالخجل لِمَا لاحظناه من غياب عوائد التحضر لديهم ومن نقص تربيتهم. فقد ظهروا مستعجلين على ضخّنا بخطبهم، رافضين الشاي الذي قُدم لهم رادّين دعوتنا إياهم إلى مقاسمتنا كسكس عشائنا. فإن غياب مكبر الصوت الكهربائي اضطرهم إلى الزعيق تحت الشمس. وكنا أنصتنا إليهم بتأدّب. وبمجرد أن انتهت العقوبة ركبوا سريعا سياراتهم التي حولها غبار الطريق غير المعبدة المتطاير إلى لون أمغر واختفوا من غير أن يكلفوا أنفسهم إشارة من اليد.

كان امتعاضنا عظيما.

بعد ذهابهم اجتمعنا حول الإمام ووصلنا إلى اتفاق أن نضحي بحماس محمد النضالي المتأجج على مذبح السلم الجماعي.

ـــ هكذا نكون عيّنا مرشحا ليتركونا وشأننا. وعلى كل فإن الفتى كان يشتعل رغبة في أن يُنتخب.

فإن محمد، مستفيدا من اقتراعنا، وجد نفسه مستشارا بلديا. على أن رئيس بلدية سيدي بونمر، تجنباً منه لإثارة مشاكل وحزازات قبلية، عيّنه نائبا له مكلفا بإدارة زيتونة. فحصلنا نحن على راحتنا وسلامنا. وصار محمد يطوف بختم وقلم في جيبه يوقّع ويدمغ في كل وقت وفي كل مكان ما يطلب إليه أن يوقعه وأن يدمغه. وهكذا،

صار كل شيء على ما يرام؛ فإن ممثلنا تحوّل بالنسبة إلينا سدا منيعا ضد نزوات المسئولين ومحاولات تدخلهم. وكان علينا أن نعترف بأنه أبدى عملا مكتملا في ممارسة وظيفته الجديدة منجزا ببراعة العمل الذي كنا ننتظره منه. ولم نتأخر، إذاً، في أننا أعدْنا إليه تقديرنا، وبعد وفاة والده، برغم منصبه وفتوة عمره، قبلناه بيننا ليكون واحدا من الجماعة.

وكان الحادث البارز وقع بمجيء الأجنبي المزيّف. ولم يكن من عادتنا استقبال أجانب. ولم نكن عرفنا سوى بعض العجزة غريبـــي الأطوار الذين كانوا يحسبوننا مجموعة نحْل والذين كانوا يأتون ليقوموا بدراسة أخلاقنا وعوائدنا. أولئك الرجال الغرباء الفضوليون كانوا يقضون أياما كاملة تحت الشمس يشاهدوننا كيف نعيش. ولأن إدارة البلدية المختلطة هي التي بعثتهم كنا عرفنا كيف نتجاهلهم برغم ما يعرف عنا من كرم الضيافة. ثم كان ذلك الثلاثي من هواة الشاي بالنعناع. فقد خرجوا من سيارة تشبه مركبة جيب الأمريكية، مرتدين شورتات وتريكوات قصيرة الأكمام، حتى لا يعانوا كثيرا من حرارة الشمس، كما يعتقدون. وكان بينهم رجل ذو شعر مشتعل وامرأة بلا عمر بيضاء وشقراء، ولكن أيضا عذراء، ذات طلعة تظهر خلاعة في اللباس وهي في أوج غواية مراهقتها الثامرة. وكانوا سعيدين بجلوسهم على حصير المقهى لتناول شايهم والتقاط صور كثيرة. وكانوا قد اهتموا حتى بحميرنا.

أسرّ إلينا جورجو قائلا:

ــ غريب؟

ــ ما ذا؟

ـــ تعرّفت على لغتهم. إنهم ألمان. أولئك الذين قاومناهم وهزمناهم. كنت أعتقدهم ماتوا جميعا.

ولكن الوافد الجديد كان له مثلنا سحنة تشبه التمر الناضج وعينان بلون الخرّوب حتى ولو أنه كان يرفض استعمال اللهجة المحلية. وبلغت دهشتنا ذروتها لما أعلن إلينا أنه مدرس وأنه حضر ليفتتح مدرسة.

ـــ مدرسة؟

ـــ أعلمني شيخ بلدية بونمر أنه في إمكاننا أن نستعمل، للغرض، المقر القديم لملحقة الفرقة الإدارية المتخصصة (لاصاص).

وشعورا منا بالغيظ، أفسحنا لأقْدرنا تعبيرا ليشرح له أننا لم ننتظر منه أن يفكر في تربية أولادنا وأن فراخ المكان من الذكور كانوا عبر الزمان يصيرون منذ طفولتهم الصغيرة تحت سلطة الشيخ الذي هو إمام المسجد، يحفظون ويرددون سور الوحي بسرعة لا تصدق وبإلقاء يجعل الآيات تتزاحم وتتكسر، على أن الموهوبين من أولئك الأطفال يتوصلون إلى حفظ الستين حزءا؛ ما يساوي مجموع الرسالة الإلهية.

وأضاف الناطق باسمنا:

ـــ لا يخدعنّكم العوز المادي الذي يعيش فيه أولئك الصبيان ولا وقاحتنا الظاهرية تجاههم. إنهم أكبادنا ونحن نحيطهم بالرعاية كما نرعى مؤمؤ عيوننا. إنه ليس فقط ضآلة مواردنا التي تمنعنا أن نغمرهم بلمعان الزينة المستوردة من بلدان الجنون كما يفعله أثرياء العاصمة. ولكنا نحرص على أن ننشئهم على الصرامة والتقشف وعلى فضائل المجهود من غير أن ننسى أبدا أن نزودهم بانتظام بالقواعد الأخلاقية

التي تساعدهم على أن يعيشوا في وثارة حقيقية.

ودقق لنا المدرس:

ــ أنا أقصد مدرسة الدولة.

فأوضح له ترجماننا أنه في الأحوال كلها نحن جميعا مؤمنون ونعتبر روح الكتاب أسمى من كل علم على وجه الأرض، وبالمقابل فإن أبناء الإسلام هؤلاء ليسوا في حاجة إلى الذهاب إلى ما يفسد عقولهم في أماكن حيث لا وجود لله وأنهم في غنى عما لا يعلمهم سوى البدع.

ولكنّ محاورنا أصرّ:

ــ القانون يقول إن المدرسة إجبارية لكل الأطفال.

فهز الجمع أكتافهم. وأوضح له أن ما يفصل بين هذا المكان المنسي وبين العاصمة هو المسافة التي تبعد بها الأرض عن السماء. وأن المناخ مختلف تماما. وفي الوقت الذي يُعلن فيه على المدينة سماء لا تتأثر، هادئة كضمير سكانها، منطقتنا كانت تواجه قسوة شهر جانفي الذي حاز من سابقه سلفة يوم كي يضعنا تحت رحمته. والتضاريس وعرة. هذه القوانين التي تصدر من بعيد تتبخر في الطريق أو هي تسقط هباء حتى قبل ولوج المنحدر الذي يوصل إلينا. فلم نرث، هكذا، سوى مصائب محزنة من نزوات عاصمية كمثل هذا الإلزام بضرورة إنارة لوحات مغازاتنا بينما نحن ما زلنا ننير بلمبة الزيت أو فحم الكربور.

فاعتقد مستشارنا البلدي أنه من الضروري أن يتدخل.

ــ هذا الأجنبي معه حق، المدرسة إجبارية.

فأكد جورجو الذي كان ينتظر سابقة ليعارض رأي السكان

العام:

ـــ هذا صحيح. في فرنسا حيث أقمت طويلا، كما تعلمون جميعا، من حق شيخ البلدية أن يرسل إلى السجن الآباء العاصين.

فحك محمد رأسه مترددا.

كان يردّ معارضة ابن علي إلى كونه الوحيد من يحتكر معرفة لغة الرومي.

وكان يتفهم إصرار الإمام على طرد المدرس. وكان الشيخ يرى وضعه، كوحيد مالك للمعرفة، يهدده وجود المدرس.

وكان يعرف تردد السكان.

فغداة الاستقلال، وبعد مغادرة العسكر الذين كانوا يحتلون الملحقة، تم الحديث مطولا عن تحويل المقر إلى سجن. ثم تم الاتفاق على جعله اصطبلا بلديا. فإن رئسنا الديني كان يملك أهم قطيع.

وبعد تردد طويل توجه محمد إلى المشوش:

ـــ سنكون بالطبع سعداء أن نجعل أبناءنا يستفيدون من هذه العلوم الجديدة المنقولة عن الأجانب. ولكن هذه الخيمة الحديدية لن يكون بوسعها أن تستقبل تلاميذك. إن حالتها لا تسمح بذلك؛ فإن الصيف يحولها إلى حمام والشتاء إلى مثلجة. يجب بناء مدرسة حقيقية بجدران من الآجر ومن الإسمنت لربطه. وابتداء من الغد سأتوجه إلى رئيس بلدية سيدي بونمر لأطلب إليه الأموال اللازمة.

ولكن المدرس لم يترك المناورة التسويفية تنطلي عليه. وذهب مهددا بأنه سيراجع السلطات العليا. وأفهمته تباسيمنا أننا لا نعتبر سوى الله هو الأعلى وأننا لن نهتم برأي من يُسمَّون سلطات. بالطبع، لم نعد نسمع بالمعلم، ولكن الأمور مع ذلك لم تنتظم. وكان

ذلك المزعج ذو العبارات الساذجة زرع بعض البذور التي لم تتأخر أنْ نبتت في أذهان بعض سكان زيتونة. وكان جورجو الذي لا يملك حيوانا واحدا هو الأول من أعاد فتح النقاش. وبفعل إلحاحه جلب إليه ابن علي وناضلا معا بصفة ناشطة من أجل فتح مدرسة حكومية.

وكان البوسطاجي والحوانتي قدّما ما يعرفان عن الامتيازات التي يتيحها التعليم اللائكي المكيف حسب ما تفرضه الأزمنة الجديدة والذي يسمح بتعلم لغة الرومي التي وحدها تفتح الأبواب لدخول مناصب عمل بأجور منتظمة، الصيف كما الشتاء، بالرغم من اجتياح الجراد، ومن الجفاف، أو الأمراض التي تبيد قطعان الماشية، وأكثر من هذا كانا يضيفان، واعدين، أن التمدرس مجاني كلية.

وكانت جماعة الإمام تنتصب في مواجهتهما معارضة إياهما بتبريرات سببت لهم مخاطر كانا سيعرّضان لها أذهان صغار غير مسلحين بعدُ. ووصل الشيخ إلى أنْ لمح أنه سيرفض أن يعلم الكلمة المقدسة لأولئك الذين يتجرأون على وضع أقدامهم داخل مؤسسة البدع.

وكانت النقاشات، التي بدأت في الأيام الأولى متزنة وهادئة، سرعان ما اشتعلت؛ الأمر الذي أحيا أحقادا قديمة وسمح لنزاعات سابقة أن تظهر. فأحسسنا أن ريح الخلاف تهب علينا فتذكرنا عبارات المشعوذ اليهودي.

فوعينا إذن الخطر الجديد الذي أصبح يتهدد مجموعتنا. وتدخل الرجال الأكثر حكمة لاستعادة التفاهم والود. وكان محمد واحدا منهم.

وأفدنا من الحادثة أن الشر يأتينا دائما من الأجانب.

أجل، ذاكرتنا الجماعية صلبة متماسكة. إن قبيلتنا عرفت كثيرا من الشرور. سأحكي لك كيف أن أجدادنا جاءوا ليستقروا في زيتونة.

الفصل الثالث

وأضاف نازلا من سيارته:

ـــ إن مصيركم صار بين أيديكم من الآن فصاعدا.

كان جورجو عند إعلان النبأ عاد بصمت إلى حانوته الذي تركه تحت حراسة الذباب ليفكر في هدوء. ومرر بنظرة جديدة على الرفوف الفقيرة حيث صففت بعض المواد التي يمكن بيعها إلى الزبائن المحليين. إن ذلك الفحص أثار على وجهه عبوس اشمئزاز.

ـــ يجب التحول. سيأتي أشخاص مثقفون جدا للإقامة هنا. وسيتمتعون برواتب مرتفعة ومنتظمة. لا بد من مدهم، بدلا من هذه المواد التي لا طائل من ورائها، بأشياء غالية ومربحة. يجب التفكير في التوسع. سأحاول شراء حانوت جاري طرّاز البرانيس. فهو تهرؤ عينيه بفعل عمله لم يعد قادرا على تمييز أصدقائه، وأقل من ذلك ما ينتظره من تحولات في المستقبل. سيتنازل لي عن محله مقابل ثلاث

معزات. سأكون غنيا وسأدخل الهاتف لأقول صباح الخير لرفاقي القدامى في الخنادق الذين بقوا في فرنسا.

لكن جورجو كان شاذ الطبع؛ فإن غربته الطويلة شجعت فيه نزوات وأهواء وعبارات تلامس الجنون.

أما محمد فإنه كان يتساءل هل يتحرر من وصاية سيدي بونمر والصعود إلى منصب رئيس بلدية بصفة كاملة غير منقوصة.

وأصر:

ـــ أنت متأكد؟

فأكد له ولد علي:

ـــ هم الذين سيصيرون تابعين لنا.

ـــ ومتى سيقع هذا؟

ـــ لن يتأخر الأمر.

لم يشك ولد علي، من جانبه، أن طلبه سيستجاب له، وأخذ يراوده الحلم بإنشاء مقر حقيقي للبريد، بملحقة من الشبابيك المرقمة، وماكينة لختم الرسائل ومقسم هاتفي يضج بمكالمات لا تتوقف.

سكان زيتونة الآخرون جميعا كانوا يحاولون أن يخفوا في أعماقهم خوفهم الأخرس من التغييرات المعلنة.

تساءل جلول الحداد:

ـــ الوالي، ما ذا يعني والٍ؟

أجاب عيسى الأقجع:

ـــ لم أر في حياتي.

ـــ وما ذا سيحدث لنا؟

لم نكن نعلم أن مصائبنا لم تكن إلا في بدايتها.

نحن عشنا، إلى هنا، في كنف الهدوء، نجهل العالم ويجهلنا. واستفدنا من تجارب الحكماء منا ومن تعاليم أوليائنا المبجلين التي ترجمناها إلى قوانين وعوائد تتكفل بتطبيقها جمعية عيّنا أعضاءها لمكانتهم المعرفية أو إنصافهم أو حسن كلامهم. وتعلمنا أن نولي الظهور لهجمات الخصومات، واعين بأن الأخطار الكبرى تنبع من داخلنا.

أجدادنا فهموا ذلك منذ قرن ونصف واستطاعوا أن يؤولوا ما كان سيحدث في الأزمنة الجديدة. كانوا يقولون:

ـــ أبناء الإسلام ناموا طويلا، وظل يهدهدهم حلم بقوتهم البالية. كل بلد كان يعتمد على قوة جاره التي تحميه، من بغداد إلى القاهرة من قرطبة إلى الباب العالي. ولكن ها هي أسبانيا، تحت ضربات السيف المسيحي، تستعاد منطقة بعد منطقة، وها هي غرناطة مهددة. لا أحد سيأتي لينقذنا بالرغم من نداءاتنا. وما إن احتل القشتالي قصر الحمراء حتى كانت بوارجه الحربية تتحرش بالموانئ المغاربية. وغالبا ما هُزم المهاجمون، ولكنهم استطاعوا أحيانا أن يضعوا قدما في بعض الموانئ. ثم انبثقت فجأة هذه الأساطيل البديعة التي هي لهذه الشعوب التي صارت سيدة في فن صهر الحديد والمعادن الأكثر شدة، وهُزمنا، وكان فشلنا شاملا. إنه يجب علينا من الآن فصاعدا أن ننشغل بتعيّشنا. وستهوي ثريات كثيرة قبل أن نرفع الرأس. وإذا عرفنا كيف نحافظ على الوئام وعلى وحدتنا فإن أحفاد أحفادنا قد سيستعيدون الأمل، الطموح، وخيلاء قراءة المستقبل. أما نحن فإننا ضعنا. إن التاريخ حقود.

جرى ذلك في خلال الانسحاب الطويل الذي كان يجب أن

يوصل، في صفوف مبعثرة، قبيلتنا المهزومة إلى هذا المكان.

ـــ كيف سنتعيش في خراب هذه البقعة. كذلك استفسر الذين يأسفون على الوادي السعيد الذي كان هدهد شبابهم. إننا لا نرى من حولنا إلا الغبار والحجارة. لا عين، ولا نهر. ولا شجرة ولا حشيش. إن المطر لا يسقط أبدا. أي طمي سيغذي القمح؟ أي شيء ستعلفه دوابنا؟ أي محراث سيقلب هذه التربة؟ أين هي الأرض السوداء التي تنفتح للسكة كالمرأة العاشقة للمداعبة الأولى من عشيقها؟ ومن سيجازيك على جهدك؟ إلى أين تتدفق تلك السواقي المرحة التي تتمتع عابثة بين بساتيننا؟ هل جفت؟ من يفكر في تقليم لوزنا؟ من يصغي لغناء العندليب؟

نصحهم أكثر الحكماء حكمة (والله هو الحكيم) بالاستسلام.

ـــ لا يفيد في شيء أن تبكوا. لن تروا أبدا سهل غرناطة وفرح الحياة.

عُزل رؤساء القوم جانبا واتهِموا بنقص حصافة الرأي.

ـــ ما ذا ينفعكم الحلف مع المنهزمين لاحقا؟

قام البواسل من حاملي البيارق إذاً ليشرحوا أنهم لن يكونوا سوى وراء راية الإسلام الخضراء.

ـــ وقبل الصدامات الأولى وقبل الهزائم الأولى كنا نعرف أننا نحن الأكثر ضعفا. ولكننا من أجل شرف القبيلة ومن أجل مجد الله كان يجب علينا النهوض. هل كنتم تحبون أن نتنكر لعقيدتنا ونتولى الكفار؟

ـــ لما ذا لم تكونوا أنتم المنتصرين؟ اشرحوا لنا. ما ذا كان

ينقص؟ الإيمان؟ نحن الغلاة. الرجال؟ نحن مثل السحاب. السلاح؟ نحن نمتلك ذلك.

ــ لا، لا شيء من ذلك كله.

ــ إذاً؟

و لم يستطيعوا الرد.

وبالرغم من صحته المتدهورة، نظرا إلى سنه المتقدم وإلى آلام مسيرته الطويلة، فإن وليّنا المبجل خرج من خيمته، يده مرفوعة، وفرض الصمت على الجميع:

ــ لم نعد الأكثر ضعفا فحسب ولكن الأكثر عرضة للنيل منا. إن وجودنا أكثر هشاشة من حياة وليد يمكن أن يذهب به ألمه الأول. ولكي تتعيش القبيلة يجب عليكم التسلح بالشجاعة، بالدأب، بالتواضع، وتأمين مصير القبيلة في يد من هم أكثر حكمة من بيننا والذين يعرفون كيف يتجنبون الفتنة والحزازات وليس في يد الشجعان ولا في يد دعاة الاقتتال الذين يعبرون عن نبلكم حقيقة ولكنهم في النهاية يكونون مهلكة لكم. ستقايضون ذوق التحدي والتحفز بالمجهود المظلم. نعم، وصلنا إلى نهاية الرحلة. هنا يجب أن تقيموا. في مكان الخراب هذا كما تقولون. لن يأتي أحد يطالبكم به. تستقرون وتغلقون دونكم عن العالم وتوطدون الأواصر بينكم. انسوا ما يباعد بينكم لصالح ما يقربكم من بعضكم. تزاوجوا زواج الدم من غير أن تتعدوا سنة الرسول. وليس عليكم أن تبنوا الأسوار من حولكم لأنها لن تكون سوى حاميات تافهة أمام المدافع التي ترعد. إن أسواركم الحقيقية ستكون تضامنكم وعقيدتكم. لن تقبلوا الأجانب ولن تعتدوا عليهم، واعملوا على أن يتزحلقوا فوق قوقعة

لامبالاتكم. ستتخلون عن الفكر وسمسرته الخطيرة كي تتفرغوا للعقيدة. إن كتابنا هو اليقين الوحيد. وستتخذون منه موضوع دراستكم وتأويلكم الوحيد وتغلقون على أنفسكم في مكان يحظر فيه دخول على تلك النصوص المدنسة التي تشرك العلي في معرفة العالم. إن هذا لهو نصحي الأخير لكم لأننا لن أتأخر في الرحيل عنكم.

ثم مات بعد أيام ودفن عند الزيتونة الكبيرة التي أخذت منها القرية اسمها.

رحيل القائد الروحي أغرق سلفنا في حيرة عظيمة. فقد أحسوا أنفسهم يتامى يواجهون بلا عون ندية العالم. إن شعورهم بالوحدة كان فظيعا. وإن أوجاع النساء آلت إلى الهستيريا. إن القدريين انزلقوا إلى حال من الذهول أفقدتهم طعم الحياة. إن المستائين تنفسوا معارضتهم لأنه لا يد الشيخ الجيل ولا سلطته صارتا تفرضان عليهم الصمت والطاعة. إن الذين كرهوا فكرة أن يؤولوا إلى الوصاية الكافرة اقترحوا أن يواصلوا مسيرتهم ليضعوا أنفسهم تحت حماية سلطان المسلمين الأقرب إليهم.

ذكّروا الذين رفضوا بتحاذير شيخنا المبجل.

ـــ إننا دائما ننتظر من جهة أخرى يد العون. إن الجزائر المشهورة بتحصنها استسلمت في ظرف ثلاثة أسابيع وإن التركي نفسه كان ينسحب من كل مكان في الوقت الذي كانت تنزل فيه جيوش سادة الحديد والنار التي لا تقهر.

ـــ هل تعلمون ما ذا ينتظركم هنا؟ محاربون يلبسون البدلة والقبعات، بالشوارب المعقوفة، يفرضون عليكم القوانين التي ستنحنون لها. وستعدّون ثمن الهزيمة بأكياس القمح الأكثر ثقلا من

وزن الشر، وبرؤوس الأنعام الأكثر من نجوم السماء، وبأكداس الذهب والفضة الأكثر من الجبال. وسيكلمونكم راكبين بلغة الرومي. فلنذهب بعيدا. إن أرض الإسلام واسعة وإن سلاطينها أشد قوة. سنجد واديا سعيدا حيث يورق الياسمين والقرنفل.

ـــ هنا أو هناك، عاجلا أو آجلا ستظهر تلك الجيوش نفسها. إنها ستمتلك العالم. يجب أن نتوقف عن التهرب من هذا الحاضر الذي هو بطعم الخراب. يجب نسيان وادي الدفلى والصباحات الندية كي نترل هنا ونحاول أن نبدأ من جديد.

لكن من كانوا أكثر ترددا سألوا:

ـــ إلى أين نحن نتجه؟ هل نواصل نحو الجنوب، ونقطع قفر الرمل، ثم قفر الحجارة، ثم أدغال بلاد الزنج المقفرة كي ندرك أخيرا مملكة تومبوكتو؟ أم نتحول نحو الغرب كي نقطع جبلا بعد جبل، والأنهار الفائضة والسهول المجدبة، والغابات حيث تفرخ الوحوش، أملا في بلوغ فاس الحبيبة الرائعة وبساتين لوزها؟ وكم هي أيام السير المتعبة والليالي الباردة المحملة بكل الأخطار؟ الجوع والعطش، قطاع الطرق والوحوش، التعب والأوبئة؟ ورجالنا الشيوخ، ونساؤنا الحوامل، مرضانا، وأطفالنا؟

من كانوا معنيين بالمواصلة هم أولئك المتحررون من كل ارتباط والأصحاء والمراهقون الذين لم يتزوجوا بعد أو الكهول الذين ما زالوا قادرين، ولكن أيضا فئة التجار والحرفيين غير الخاضعين للمشاركة في الحرب، ولكن أكثر من ذلك المغامرون الذين تهيجهم فكرة اكتشاف البلدان الجديدة، وأخيرا المحاربون الذين يحلمون بملاقاة راية أخرى تحتها يحاربون من جديد.

افترقوا في الألم. كم من أمّ، والوجه سابح في الدموع، راحت تشاهد فلذة كبدها ينأى عنها، وكم من أخ استسلم لترك رفيقه يغادره، وكم من عروس ذهبت لتخفي حزنها وبكاءها خلف خشّاب؛ لأنها ستؤول إلى غير من أحبت وتحمل أكثر ما يمكن من الأطفال.

وبعض الذين كانوا لن يرى بعضهم بعضا تشبثوا بهدهدة أنفسهم بالأمل.

ـــ سنقيم في أحد بلدان الإسلام، وسنشتري الأرض والإبل، وفي الوقت المناسب سنرسل إليكم مبعوثينا وأدلاءنا الذين يوصلونكم عندنا. وحين تجتمع قبيلتنا من جديد ستعرف حيوية أخرى.

قرر الذين اختاروا البقاء أن يمدوهم بذهبهم وفضتهم وحلي نسائهم وحتى مجوهرات العذارى اللائي خُطبن، وحملوا كل ما كانوا في حاجة إليه من زاد.

وقالوا لهم:

ـــ الله معكم، وإذا كان القدر ضدكم، ونفركم السكان الأصليون، فاعلموا أنكم ستجدون ملجأ لكم هنا، إخوانا لكم ليستقبلوا بلا استهزاء الناجين منكم في المغامرة. ومهما بقيتم ومهما جاء بكم البعد فإنكم ستحظون بأولوية بساتيننا.

وفي لحظات الوداع فإن الله وحده كان قادرا على أن يقول ما ذا كان يجري في قلوبهم.

ولأن الحنين كان دافعا، اعتقد أسلافنا أن باستطاعتهم، بقوة التشبث بالعمل، إعادة إنشاء وادٍ جديد سعيد حيث تتوافر أزهار الربيع والنخيل وكل تلك الأشياء التي تكوّن في الأرض ندا للجنة، ما

عدا أنهار العسل والحور العين. وفي انسحابهم حملوا معهم أنواعا من النباتات ومن البذور، وأشكالا أخرى من الحيوانات من ذات القرن ومن غيرها، من ذات الأربع ومن غيرها أكثر. ولكن لا الأولون ولا الآخرون عاشوا طويلا، من غير الحديث عمن قضوا خلال السفر.

فروع الرمان وشتلات النعناع ذبلت برغم العلاج، وجف الزعرور والعرعار. ولم يستطع القمح أن يتأقلم. والشعير أعطى عشر مرات أقل مما كان يعطيها في وادي الريحان واليسر حيث بعض آبائنا بقوا عدة سنين دون أن يحرثوا ودون أن يزرعوا لأن مخازنهم كانت مملوءة.

ومع ذلك وقعت معجزة. فإن جذور اليوكلبتوس حييت تقريبا كلها من جديد ثم بدأت الشجيرات الأخرى ترتفع نحو السماء لتكون في بضع سنين غابة رائعة صارت مأوى طيور الأماكن المجاورة.

اكتشف أسلافنا فضائل النباتات الأصلية، الزيتون ذا الخشب الصلب، التين ذا الفروع المشوهة. الأول أمدهم بالزيت والصابون، والثاني بفاكهة جافة تشكل زادهم في شتاء البرد والجوع.

البقرات النحيفة والنعاج المتكاسلة التي ترفض أن ترعى مما هو شائك كانت تتخلى للمعز اللبق كي يستمد من ذلك غذاءه.

انفصلوا عن جيادهم التي لم تعد نافعة.

الأمر كان مأسويا.

كانوا في هذا الوقت بالذات فكروا حقيقة في ضرورة الارتداد الممزقة.

فرؤساء الصف وأبناء الخيام الكبيرة والشرفاء وحاملو البيارق ورؤساء القوم والمحاربون المحنكون وجدوا أنفسهم مدُوسين عند

الأقدام أرضا يجرجرون أرجلهم في التراب والوحل يسيرون متعبين مثل أفظاظ. كيف يستطيع رجل أن يعيش بلا مركوب. كيف تواجه من ينظرون إليك من فوق رواحلهم؟ كيف يمكن صيد الغزال أو مطاردة الخنزير؟

وداعا، وداعا للمبارزات والسباقات الفروسية ولكل تلك الاستعراضات التي يصطف فيها أحيانا ألف جواد مزينة بالحرير المطرز بالذهب التي تصهل وتدوس متعجلة أكثر من أسيادها، بينما من على الناقة تراقب العذارى من بعيد، مزيحات ستائر الهودج، الفرسان يثيرون على غروب الشمس بكامل الإغراء نقعا من ذهب. وداعا لمراسم الأعراس حيث الرفاه ينافس الإسراف عندما تقود العروس إلى بيتها الجديد مجموعةٌ من الفرسان شرفاء كلهم وكلهم عزّاب والذين يعودون متعبين من نهاية العرس بعد سبعة أيام وسبع ليال من السكر ومن لعب الفروسية.

فهموا خاصة أنهم لن يطأوا ميدان معركة وأنه يجب عليهم أن يقايضوا السيف والبندقية بالمحراث والفأس، وجيادهم بالحمير المتحملة أو البغال الخفيفة، ولكن أيضا العجرفة بالاقتصاد، والجمال بالنافع. ونسي الرشيقون أن يثمنوا مهابتهم، والوسيمون فتنتهم، والمغنون مواهبهم.

لقد بنوا بيوتا من حجر واستقروا في الاستسلام.

السنوات الأولى في زيتونة كانت قاتلة. فقد اكتشف المهجّرون حدة الشمس الجديدة ثم الشتاء القاسي، مع الثلج، آه الثلج، يغطي الأرض أشبارا يتفتت ويذوب في اليد وبرغم ذلك يدوم أشهرا، يجوع الذئب في الغابة، الطير في السماء والأرنب في جحره.

ولكن أيضا الإنسان.

الضرورة تصنع الفضيلة. فقد وجد المحاربون أنفسهم فلاحين. وبدأوا إذاً في المهمة. ولكن شح الأرض أفشل كل مجهود. ورفض الزيتون الهزيل أن يكبر مفقدا الصابرين صبرهم، وبقيت سنابل الشعير خفيفة، واستمرت عظام المعز في النحول تحت الجلد. وانتهى البواسل من الذين يعملون إلى التثبيط.

ـــ لن نستخرج شيئا من هذه التربة المشؤومة. كان يجب أن نسلك سبيل إخواننا.

فأجابهم:

ـــ هل تعلمون ما ذا كانت ستواجهنا من أخطار؟ هل تعلمون ما عانوه؟ غرباء معرضون لحذر السكان ورفضهم، يسْتجدون الضيافة أو التسامح البسيط؟

ـــ ولكنهم لم يرجعوا. ربما اكتشفوا واديا حيث ينبت القرنفل ويفرخ الحمام البري.

وبشيء من المكر، مواجهة لكثير من الشراسة، فإن عطفة الأمل في مجيء نجدة من بعيد بدأت تخترق الأذهان. وتم الشروع في عد الشهور المنقضية منذ رحيلهم، وفي تقويم المسافات التي تفصلهم عن أرض ممكنة لالتجائهم. وبدون وعي، فإن الأنظار كانت ترنو نحو الأفق الذي كان ابتلع رفاقهم، وغالبا ما كان بعضهم يفاجئ بعضا في مراقبة الطريق التي كانوا قد اختفوا منها. إن أي ظل متحرك، يرى من بعيد، كان يوقع القرية في اضطراب.

ولكن الأعوام كانت تتالى ولا أحد كان رجع. وكثيرة هي الخيبات التي أنهكت أذرع من هم أكثر تطوعا. ولم تعد لأحد

الشجاعة في إزالة الأدغال، ولا حفر الآبار، ولا غرس الأشجار، ولا قيادة المحراث.

فلقد تقوقعوا على أنفسهم وأقاموا في المؤقت وعاشوا في الانتظار.

الفصل الرابع

كان المراهق لاحظ طويلا السيارة السوداء التي كانت تبذل جهدا في صعود المنحدر متلوية بلا انقطاع كي تتجنب مواضع السيول وركامات الحجارة. ثم وصل جريا إلى ساحة التين ليعلمنا.

جميع السكان من الذكور كانوا تجمعوا عندما ظهرت في نهاية المرتقى السيارة الفخمة بفمها من نوع الكْروم قبل أن تدخل بسرعة خفيفة في شارع القرية الوحيد. لقد سحرتنا السيارة بانزلاقها الصامت الذي بدا لنا مدفوعا بسحر النظام. إن العجلات كانت توقفت على بعد أمتار من ساحة القروية. وبعد وقت معلق من الدقائق التي حجّرتنا انفتح الباب لتنبعث صيحة تعجب.

ـــ خراء! هذه القرية أصعب دخولا من الجنة.

انسل الجسم المنكسر بصعوبة من السيارة قبل أن يستوي. وهكذا انتصبت أمام أعيننا هيئة عمر المبروك.

بدأ الشيوخ في الارتجاف.

ظهور عجيب. بعث لا يصدق. كان يواجهنا، الوجه عابس يتصبب حبات كبيرة من العرق. عمر المبروك الذي كنا اعتقدناه مات.

نحن نتذكر جميعا طفولة عمر المبروك، ولكن أيضا نسبه المتعرج. إنك لا تحصد إلا ما جنيت. أحكي لك قصة جده حسن المبروك المرعب الذي كانت تجاوزاته زرعت البلبلة في منطقتنا. إن المراهق كان لا يخاف الكبار ولا يخشى الله. مبكرا، كان تعلم استعمال المطرق. كان يرهب سكان المنطقة المعزولين وينهب الفلاحين الذين يلاقيهم في طريقه ويعتدي على الموالّين الراجعين من سوق الغنم في سيدي بونمر. وبنصيحة من حكيم القرية فإن الأب حسن زوج ابنه المشاغب قبل أن يبلغ الخامسة عشرة على أمل أن يراه استقام يوما. ولكن زوجة المراهق النحيف ذا الأعضاء الطويلة كانت اختفت بعد ستة أشهر، قالوا قتلتها غبطة اللذة. وكانت شريكة فراشه الثانية توفيت بعد وقت قصير من ذلك. فإن جميع سذّج القرية، وجميع نسائنا، أنصتوا إلى الشائعة التي كانت بدأت في الرواج. قيل إن حسن العظيم كان له عضو، لكبره الفظيع، يستطيع أن يخترق أحشاء أي أنثى تقع تحته.

ولكن حسن منذ صغره لم تكن له عين إلا على أخت عيسى الأقجع الكبرى. لقد كانت لها، حتى قبل بلوغها، قامة لا يمكن تشبيهها، كما وقع عليه الاتفاق بناقص صوت واحد، إلا بثور قوي.

غير أن والد العذراء لم يكن على ذلك الرأي. وكان يرى حسن مجرد نذل لا خلاق له ولا إيمان رافضا أن يتنازل له عن ابنته.

وكان يمكن أن يتم التفاوض والتشاور والتنازل ولكن والد عيسى لم يكن يريد أن ينصت.

ـــ لن أعطي طفلتي لذلك الساقط الوغد.

ولأن والد حسن أحس بالإهانة كان قام واضعا حدا للحديث.

كان ذلك ليلة شتاء مرعبة، والثلج يتراكم، والريح التي تصيح، والبرد القارص الذي أجبر صاحبة البيت على التدفؤ على قرون معزهّا.

بركلة واحدة اقتلع الباب وفتح الممر إلى ماسورتي البندقية التي أضاءتها الشمعة التي أوقدها والد عيسى. البندقية متوترة، وضغط حسن على الزناد ثم اختفى في ظلمة الليلة المضطربة.

لقد أيقظ بكاء الأم سكان القرية. وتسلح زوجها بقلبوزة وراح فدق على باب حسن وكاد يصرعه لولا تدخل بعض الجيران الذين أحاطوا به وأمسكوه كما أمسكوا فيه غضب الرجل الذي أهين في شرفه. وتكلم أكثر من واحد بالتهدئة. وتدخل الإمام فهدأ الشحان. واكتفى والد عيسى برواية الواقعة. ولأن المطر كان بدأ في النزول تم الاتفاق على اللجوء إلى قاعة المسجد.

ولأنه طُلب إليه أن يقدم شرحا لما وقع فإن والد حسن أظهر صراحة عنيفة.

ـــ تعلمون أني لم أستطع أن أمسك بيد على ذلك الصعلوك. وليس لأني لم أحاول. مثلكم، فأنا أستنكر الفعل الذي أقدم عليه. إنه أولا شرفي الذي لطخه ذلك الرجل. وابتداء من الغد، إن أردتم، سنتعقبه في الغابة. وأقسم لكم على أني أنا من يضغط على زناد

سلاحي إن كشفناه.

إثارة الطريدة كانت بلا فائدة، ولذلك فإن الأشخاص غير المتورطين، ولكن أيضا والد عيسى، أحسوا براحة، وكذلك والد حسن المرعَب باحتمال أن يضطر إلى الوفاء بما وعد فيقتل ابنه.

كنا كثيرين نحن الذين عصف بنا الحادث. وبالرغم من إدانتنا الطريقة، اتفقت أغلبيتنا على أنهما كانا يشكلان زوجا جميلا. ولم نكن سذجا إلى حد أن نعتقد أن العملاق استدرج العملاقة بسهولة.

وفي الواقع فإن هذه الأخيرة أظهرت طاعة غير متوقعة. فإنها كانت تنقاد من غير أن تبدي مقاومة، وفي المغارة التي التجآ إليها لم يستطع أن يقربها من دون رضاها.

وفي الأيام الجميلة الأولى كان حسن بنى في الغابة مسكنا من الطين. وكان مثوى العملاقين يتصاعد منه غالبا عراكهما. إن الرجل كان يعتقد نفسه في بلد خاضع. وكانت المرأة، باستثناء النوم، لم تتعود على أن تترك نفسها يُفعل بها. لأنه نشط، ولأنها أكثر حيوية منه فإن الصفعة المفاجئة منه تقابلها غالبا ذراعها المرفوعة. إن الهرقل تعود دائما على استعمال العصا المعلقة في مسمار في الجدار الطيني إلى اليوم الذي فيه أخذتها منه عملاقته بين يديها بلباقة وبحركة هادئة كسرتها كما تكسر فرع دالية. وزيادة على حسن فإن أخت عيسى كانت تضطلع ببقرتين سمنتا إلى حد إثارة الغيرة.

في فجر ليلة راعدة، فتح حسن عينيه على الأذان الأول فلاحظ غرابة الضياء الذي كان يغمر بيته. واستيقظت امرأته على صرخة. لقد قاما ليلاحظا الاختراق العريض الذي حدث في الجدار

المقابل. لقد اختفت البقرتان.

كان حسن متأكدا: إن ذلك لن يكون سوى نتيجة لتسلل من بني حجار. كانوا هم الوحيدين من يقومون سرا بمثل ذلك. وبدون أن يقول كلمة لبس برنوسه وأخذ عصاه الجديدة ثم خرج.

قبيلة بني حجار عرفت مصيرا شبيها بمصيرنا. فبعد انهزامها جاءت لتلتجئ في مرتفع أشد امتناعا ووحشة، في مقابلنا من الجانب الآخر للمهوى الكبير. ولكن رجالها لم يستفيدوا من تعاليم حكمائهم. وأداروا ظهورهم لأوامر المشرع مفضلين السلب والنهب. ولذلك عاقبهم الله بأن جعل رؤوسهم مشتعلة ليتعرف عليهم أيٌّ كان. وكانت أنوفهم الكبيرة تعطي رؤوسهم هيئة طيور جارحة. وكانوا بعمائمهم الصفراء ينتشرون في المنطقة في مجموعات تتكون من أربعة أفراد إلى خمسة متكتمين، شبحيين، متلاشين، يظهرون ويختفون خلسة كأنهم زودوا بقدرة عجيبة على الحضور في وقت واحد في عدة أمكنة. إن قساوتهم كانت خرافية. لم تأخذهم بضحاياهم يوما رأفة. وعندما يظهرون فجأة معترضين سبيل فلاح ينقل غلته نحو سوق، أو حينما يكون غالبا عائدا متمسكا في جيبه بما عاد عليه من منتوجه، فإن الرجل يعلم أنه محكوم عليه.

في الماضي، كان يحدث أن يقتحموا سوق سيدي بونمر للمواشي. وبمجرد أن يدخلوا تخفت الأصوات وتتسارع عمليات الشراء والبيع وتقصر المساومات ويختفي كثير من الشارين مرجئين مشاريعهم إلى أسبوع آخر. فإن بني حجار يفاجئون الآخرين الواحد بعد الآخر ويبدأون في التسكع بين الرجال وبين الدواب، مصممين، لامبالين، غرباء وصامتين. ثم، خلال لحظة، يخرجون بهدوء ويذوبون

في الطبيعة. لم يكونوا في حاجة إلى أن يكلموا بعضهم بعضا، أن يشير بعضهم إلى بعض، أو أن يتشاوروا. وباتفاق ضمني يكونون عينوا فريستهم. الموال أو مربي المواشي الخائف يمكنه أن يجتهد في تغيير المسار كي يعود سالكا الطرق غير المتوقعة والملتوية. إنهم في الوقت المحدد يظهرون أمامه هادئين دائما، خاملين تقريبا، ودائما بما قل من الكلام.

أحيانا، ولأسباب لا يعرفونها إلا هم، يهاجمون في الساحة وفي الوقت نفسه. آتون من كل الجهات، فإنهم يحيطون بفريستهم بكل بطء ثم ينتقلون إلى الهجوم بسرعة البرق. إنهم يقتلون ضحيتهم ثم يسلبونها من غير أن يتجرأ أحد من الحضور على التحرك. ثم يغادرون بلا عجلة. إن فرق الدرك لا تبدي أي حماس لملاحقتهم، لأنهم يعرفون أخطار المواجهة مع أولئك الرجال الذين يضعون الوجود في آخر ما يحتقرونه، فهم يقاتلون متفرقين وبمنهجية، يقتلون ببرودة ويموتون من غير أن تصدر عنهم أي صيحة. إن أبناء الشيطان أولئك كانوا يتخلون عن موتاهم بلا ندم تاركين الجثث لهما للضباع والغربان. إن مدير إدارة البلدية المختلطة لا يتحرك إلا إذا كان بني حجار تعدوا على المعمرين. وحينها، وعملا بمبدأ المسؤولية الجماعية، فإنه يرسل الدرك إلى رأس الجبل الصخري ليعودوا بعشرة من الكهول الذكور، وفي رقابهم الحبال، يُحكم عليهم بكسر صخر المحاجر، بحفر أروقة المناجم أو بنتر الحلفا، إلا إذا قرر أن يُرحّلوا إلى ما وراء المحيط. وهكذا تواصل نقص عدد الذكور في القبيلة.

كانوا رجالا بلا دين. ولم يكن لهم إمام ولا مسجد، لا يصلون ولا يصومون، والمتعلم منهم كان لا يستطيع أن يستظهر

سورة واحدة من القرآن. إن الشائعة كانت تؤكد أنهم كانوا لا يعرفون كيف يذبحون دوابهم. وأنهم كانوا يكتفون بصرعها أو خنقها قبل سلخلها. وزعموا أنهم كانوا لا يدفنون موتاهم. لعنة الله عليهم!

ولأن كثيرا من النساء صرن بلا أزواج، فإن القبيلة كانت ترسلهن إلى المدن حيث المواقع العسكرية ليبعن أجسادهن إلى السبايس والقومية مقابل دراهم ومواد غذائية. وكانت الخبيرات منهن تعلمن المبتدئات الحركات السرية التي تلهب الجسد وتسحر الروح. إن فن أولئك الفتيات أكسبهن سمعة بلغت حد أن صار يزورهن زبناء من أماكن نائية. لقد كن يعرفن كيف يهيجن الرغبات الأكثر جنونا، وليس فقط أن يقدمن أنفسهن ولكن أن يشجعن كل النزوات. إنه كثيرا ما عرفت ليالي المدن اضطرابات بسبب تنافس الرجال على الحظوة بهن. حتى إن بعض أولئك الرجال وصل به الحد إلى طلب الزواج من بعضهن. إن الأوصياء على أولئك الفاتنات كانوا يطلبون ثمنا غاليا. ولكن العسكر في يوم قبض منحتهم ومربي المواشي بعد صفقاتهم المربحة، مجذوبين نحوهن، وبعد الخمر، والغناء والرقص، وبعد الفتور الذي يتلو الجماع المتكرر، غالبا ما كان يظهر عليهم فجأة رجل يذبح من يذبح وينهب. فإن بقايا الجثة، مما افترسته آكلة الجيفة، كان يعثر عليها في عمق شعبة. إن السلطات العسكرية، التي حيرتها اختفاءات جنودها الغريبة، كانت قامت بتحقيق دقيق. وبالرغم من شكوكهم فإنهم لم يتوصلوا أبدا إلى دليل.

فإن بني حجار، وهم يجهلون مناهي الرسول، كانوا في ما بينهم يمارسون الزنى ويأتونها بالمحارم، وكانوا بعد ذلك لا يعلمون من أي نطفة منِيّ ولد أبناؤهم.

حسن المبروك كان واثقا من أن بني حجار وحدهم كانوا قادرين على خرق جدار من الطين في صمت وفك رباط الدواب واقتيادها. فلا أحد كان يعرف منطقتنا أكثر من حسن. فإنه اختصر من عدة مسالك وقطع القنطرة الوحيدة فوق المهوى الذي يفصل بيننا وبين هؤلاء الآيلين إلى جهنم ثم كمن في خشّاب. ترك الرجال الثلاثة الذين يقودون البقرتين ليصلوا إلى وسط المعبر. ثم خرج العملاق من مخبئه ضخما وملتهبا وقد ثنى برنوسه على ذراعه الأيسر ورفع بيده اليمنى عصاه إلى أعلى وصرخ في اتجاه شريك خيالي.

ــ حاصرْهم من الجهة الأخرى.

من طرف القنطرة الآخر ظهر عملاق آخر، برنوسه مثنيّ على ذراعه اليسرى والعصا في اليد اليمنى.

ــ أنا هنا.

وتدخلت مطارق الزبوج فصرع السراق الثلاثة ورموا من أعلى الحاجز.

فخلال طريق العودة لم يكف حسن المبروك عن التفجر تأنيبا لزوجته التي كانت تجرأت على التنكر في ملابسه.

ــ كيف تتجرئين؟

ــ كيف كنت ستفعل من غير مساعدتي؟

ــ أنت لست سوى مغامرة. أسأل نفسي فيم تقضين وقتك خلال غيابي عن البيت؟.

ــ في رعي بقرتيك، شُفْ.

وماتت امرأة حسن الثالثة بدورها وخلفت له ولدا لهزاله ونحالته صرخ العملاق بالفضيحة. وظهر ذات يوم فجأة في ساحة

التين، وهو يحمل في راحة يده القزم، وقاطع والد عيسى:

ـــ أعيد لك ثمرة ابنتك الفاسقة. إن هذا الشبح الصغير ليس نتاج أعمالي.

لم يتأخر حسن المبروك، مغيظا، في تقفي طريق الذين كانوا حاولوا أن يسرقوه. وبدأ يرغي في مسالكنا الجبلية، ينهب ويدمر كل شيء في طريقه. وكان رجال الدرك زارونا مرات كثيرة متهميننا بأننا نؤويه ونغذيه بينما كان حكماؤنا في كل مرة يدعونه إلى العودة إلى الطريق القويم.

ثم إن حسن المبروك اختفى كلية. ولم نعد نسمع عنه ولا عن تجاوزاته. وأُكِد لنا أنه التحق ببني حجار ليتزوج بامرأة منهم ويحيا حياتهم. فليهد الله الضالين صراطه المستقيم!

لذلك السبب كنا نشاهد، متخوفين، ابن حسن المبروك النحيل يكبر وقد كفله جده. وبعد ثلاث سنين صعبة بدأ الطفل يندفع بحيوية في الربيع ويمسك فروع أشجار الرمان المملوءة ماء من وادي الزنبق والذكريات السعيدة. ولكننا عاينا براحة، عكس أبيه، أن سليمان بدأ هادئا متماسكا، محترما وطيعا إلى حد أن الجدة كانت تقدمه مثالا لذريتها المضطربة. معلوم أن الرماد يولد من النار. وكان يحدث أن يقضي الطفل ساعات كاملة، جالسا في عتبة الدار، ساكنا وصامتا، كأنه ضائع في تأمل عميق. وكان يرفض أن يشارك عمه عيسى الأقجع، الأكبر منه سنا بعام، ألعابه العنيفة. كان لا يتكلم إلا ليقول ما هو ضروري جدا، ولا يجيب عن الأسئلة إلا باتزان مختصر. ولم يكن له رفيق ولا صديق. ولأن ذلك السلوك طال فإن الجد بدأ يتساءل.

ـــ هل وقعت ابنتي الكبرى فعلا تحت غواية أحد قطاع الطرق الذي يكون مر قرب كوخها الزوجي؟

أخيرا، وفي يوم من الأيام، بعد أن لاحظ طويلا سليمان الذي يأكل بصفة منظمة في صحن الكسكس المشترك، فإن الولي أعلن:

ـــ أعتقد أن هذا الطفل ساذج شيئا ما.

ولأن النبوءة قيلت فإن الأشياء تغيرت كلية. إن أصل سليمان لم يعد همّ أحد. كف الجيران عن الإشفاق على اليتيم، كما كف عيسى عن دعوته إلى ألعابه، والعمة لم تعد تضرب به المثل، والصغيرة مريم، المثيرة كالشيطان، لم تعد توليه نظراتها.

عاش سليمان في بيت والد عيسى، في حضور شفاف وحيادي، في ظل أليف وهادئ، يكبر في لامبلاة عامة. وعندما كان الجد يتوجه إلى سوق سيدي بونمر من أجل تسويق فائضه من الزيتون أو من الشعير ثم يضع جانبا المبلغ الضروري لدفع الدين المترتب عليه عند البقال، يشتري لأهل بيته الجديد من الملابس، ولدي عودته ينتبه، إلى أنه، وبكل صدق، نسي أن يأخذ سليمان في الحسبان. ولأنه رجل على درجة من الإنصاف يجد نفسه مضطرا إلى العودة إلى القرية من أجل أن يشتري لليتيم مثل ما اشتراه لأبنائه. فإنه كاد أن ينسى ختنه. فقد أُلبس في آخر لحظة قندورة معارة على عجل ونُقل إلى جانب عيسى الذي كان يبكي، لا يبالي بعبارات الكهول الذين كانوا يحاولون أن يروحوا عنه وهم يضعون ورقات نقدية وسخة ومكمشة. إن الطفل صرخ صرخة ثاقبة حينما فرجت ساقاه. ولكن طرّاز البرانيس كان استقام، والموس مدمى قليلا. كان هناك وقت من

التأرجح عندما تقدم سليمان مدفوعا من ظهره. من ذا الذي كان سيشل حركة هذا الفتى؟ ولكن سليمان ترك لهم أن يفعلوا به ما يشاءون فأثار ذلك جلبة كلام بين الحاضرين.

وعندما بلغ سليمان عامه الخامس رفض الإمام أن يدخله المدرسة القرآنية. وقال لوالد عيسى:

ـــ إن قران حسن بابنتك لم يتم بفاتحة. إن هذا الطفل هو ابن زنى. ولا يستطيع أن يجتاز عتبة بيت الله من أجل أن يستقبل رسالته.

الولي لم يحتج وترك للطفل أن يسرح المعزات العائلية.

بعد أشهر، سُر والد عيسى لرؤيته تلك المعزات تعطي الحليب أكثر مما كانت تعطيه في السابق. وأن طبقة سميكة من الشحم صارت تغطي عظامها التي كانت بارزة. فخلال تلك السنة ولدت ست معزات. وهذا أمر عاينته بنفسي. تستطيع أن تسأل عنه ابني.

علق بعض الحسّاد:

ـــ الأبرياء يستفيدون دائما من الامتياز الإلهي.

المستفيد السعيد لم يكن فكر في تكذيبهم. وبعد مفاوضة طويلة قبل أن يوكل الإمام وملاّكان آخران قطعانهم إلى سليمان على أساس اقتسام ما تضعه المعزات من الجديان. وهكذا وجد الطفل نفسه بمائة دابة يسوقها منذ الفجر بعيدا إلى جوانب الجبال التي لا تزال مخضرة.

ولكن اليتيم كان يكبر بسرعة مذهلة، وفي عامه الثاني عشر كان بلغ قامة الرجل. وفي يوم العيد استعار برنوسا من عمه وحضر مثلنا إلى المسجد لصلاة الصبح. وبمجرد أن وصل الإمام كان دفعه

بحركة من يده.

ـــ لا تستطيع أن تدخل هذا المكان.

خفض سليمان رأسه وابتعد صامتا. وذهب ليلتجئ إلى ظل زيتونة ليبكي ثمالته. كنا كثيرين نحن الذين تأسفنا لصرامة الشيخ.

أصابت والده بالتبني حالة من تأنيب الضمير.

أسر إلى زوجته:

ـــ سليمان صار رجلا. ولا يهمني أن يكون متواضعا، لن أتركه يواصل رعي معزاتنا. إنه عمل لا يليق بكهل.

وافق إمامنا براحة. واقترح أن يحال سليمان على قيادة بقرات الحرث.

ـــ أحمد، الذي يحرث لي، رفض أن يستعمل ابنه. أعرض عليه مكانه.

تلقّى، إذاً، عمّ أقل سنا من سابقه عصا الرعي، وتعلم سليمان قيادة بقرتين تحت النير. وبعد أيام أوكل إليه الحرّاث، خلال أوقات قصيرة، مقبضي المحراث. وبعد الهفوات التي لا يمكن تجنبها توصل سليمان إلى أن يشق أثلاما مستقيمة وعميقة مرتين.

فقال له رفيقه المعجب:

ـــ أنت، يا خويا، تملك قوة خارقة.

لم يكن والد عيسى هو الأخير من انتبه إلى تمكّن الحفيد، ولأنه كان غالبا ما يراه يقود المحراث فإنه توجه إلى الإمام وطلب منه أن يرفع أجر محميّه. لقد باء برفض قاطع.

بعد أيام من التفكير أعلن الولي إلى امرأته، بصوت غير مكترث ولكن صارم كي يشعرها أنه لا يشاورها ولكن ليعلْمها

بقرار كان اتخذه:

ــــ سأبيع جميع معزاتي وأستلف الباقي من أخي وأتوجه إلى سيدي بونمر لأشتري زوج بقرات. ظهر سليمان أنه حرّاث من درجة أولى. إنه يستطيع أن يقلب هكتارا من الأرض في اليوم. سيكون مفيدا لنا أن نستخدمه، كما يعل ذلك الإمام، مقابل العشر من الغلة.

فقالت له زوجته:

ــــ أخوك معروف بجشعه ولن يعطيك دورو.

ــــ أرهن له جزءا من زيتوناتي.

ــــ لكن الشيخ لن يقبل المنافسة.

ــــ إن ذلك لن يؤرقني.

ربح سليمان في البدل لأنه ورث محراثا حقيقيا بذراعين يمكن أن الارتكاز عليهما بقوة وسكة من حديد تشق أرضا تطرى فجأة.

عند انتهاء أعمال الحرث، اقترح سليمان على وليّه أن يستصلح الجانب البائر من أرض العائلة المهمل منذ زمن.

ــــ لكنه سيكون عملا جبارا من أجل نتيجة مخيبة لا محالة. سيصيبني العجب إن كنا نستطيع أن ننبت أي شيء في هذه القطعة من الأرض المحجرة.

ــــ وإلا ما ذا سأفعل طول نهاراتي.

ــــ كما يعجبك.

تبنى سليمان منذ الخامسة عسرة من عمره نمط حياة التزم به حتى مماته. كان ينهض فجرا، عند الأذان الأول. وبعد أن يؤدي واجبه الديني خارج المسجد يبتلع صحنا كبيرا من الكسكس مسقيا

بحليب المعزة ويضع في قلمونة برنوسه ثلاث خبزات من الشعير وحفنتين من التين المجفف ثم يذهب نحو الحقول كيلا يعود إلا في الليل المظلم. وينام بمجرد أن يبتلع اللقمة الأخيرة من عشائه. وعلى عكس أقرانه من المراهقين لم يحس بالحاجة إلى أن يترل إلى المدينة كي يروح عن نفسه بخطف نظرة إلى ابنة كولون من بعيد أو إجبار نفسه على شرب جرعات من هذا السائل المر المزبد الذي يثير الغثيان. إنه لا يستريح إلا في أيام الأعياد الدينية، ليس إيمانا ولكن تجنبا لصواعق الإمام.

في الثامنة عشرة من عمره تجاوز سليمان، بشبر، سكان القرية الأكثر طولا ورشاقة وكان الشيوخ المعجبون يعلقون عند مروره:

ــ إنه شيء يسعد أن نعاين أنه وضع قوته في خدمة الخير.

ــ أعتقد أنه حان الوقت كي نمكنه من امرأة. وفي الفراش فإن قوته ستحدث العجب، وسنرى قريبا أن ذكورا أقوياء جاءوا يعززون صفوفنا.

إن الجد، الذي كان يعرف أن يسره يعود إلى نشاط سليمان الهائل، ظهر مترددا. ولأنه اكتشف الاستعراض فإنه انتهى إلى أن يعود إلى رأي الجماعة الواقعة تحت تأثير الإمام الذي وجد الوسيلة للتخلص من منافسه.

فقال لهم:

ــ بالضبط، ابنتي مريم أدركت سن البلوغ.

وأفهم أنه من غير اللائق لرجل أن يتزوج عمته ولو كانت أصغر سنا، ولو كانت عذراء.

فإن والد عيسى لم يقتنع. ولكن مريم، الظريفة دائما، كانت شغوفا برابح الوسيم، الذي كان سيصبح لاحقا حارس غابة وموظفا ثانيا بعد ولد علي. شرحت لأمها، إذاً، أنها لن تقبل أبدا بأن تجد نفسها في فراش رجل يفوقها قامةً مرتين، على احتمال أن تتعرض للخطر الذي تعرضت له أختها البكر التي كانت أشد منها جسامة. إن مرافعة أم عيسى لدى زوجها أقنعته بأن يتراجع عن مشروعه. وبدأ إذاً في مشاورة آباء العذارى اللائي هن في سن الزواج. ووقع اختياره على تلك التي أبدى والدها تفهما. ولكن بمجرد أن قبل الطلب بصفة رسمية فإن الصهر الجديد الذي كان يعرف بأي قوة طبيعية كان سيرتبط، أوجب علنا أن يتمكن سليمان من حقه الكامل في الميراث.

فاحتج عيسى:

ـــ حسب تدابير أجدادنا فإن التراث العائلي يجب أن لا يقسم.

فقيل له إن الأمر لا يتعقل بتجزئة الملكية الأبوية ولكن جعل سليمان يستفيد من القسمة التي تعود إلى قاطع الطريق أبيه.

ـــ ما دمت تكفلت به فإنه كان من الإنصاف أن تستغل لصالحك أملاكه. ولكن يجب عليك الآن أن تعيدها إلى من سيبني بيته.

احتج الجد لكونه تكفل بسليمان مثل ابنه ولأنه، منطقيا، لا يمكنه إلا أن يعطى حصة مساوية لتلك التي يمكن لأعمامه أن يطلبوها.

تناقشت الجمعية مطولا. تم الاستشهاد بتعاليم المشرع، وأثيرت التدابير العرفية، وطُلب إلى حفّاظنا أن يذكرونا بالسوابق.

لقد وقعت مناظرات جميلة. وكالعادة فإن الاتفاق تم على أساس حل وسط. ودعي الفتى أخيرا إلى الإدلاء برأيه فأبدى موافقته الكاملة على ما تم الاتفاق عليه، وامتنانه الدائم لوليه، وشكره الحار للجمعية.

تبادل أعضاء الجماعة التهاني على الخاتمة التي آلت إليها القضية، وللاحتفال بالحدث فإن والد عيسى وصهر سليمان ذبح كل منهما معزة.

فسليمان، يسنده أعمامه وأفراد من العائلة الحليفة، بنى دارا من الحجارة، وتم الاحتفال بالعرس في بساطة نزيهة. وفي غد ليلة دخلته، كان استأنف عمله.

فمخاوف الجد ظهرت غير مؤسسة، فالعملاق غالبا ما وجد نفسه في الحقول المجاورة يقدم يد المساعدة لأعمامه المتكاسلين، كما قدر أنه من الطبيعي أن يستمر في قيادة محراث من كان من قبل آواه والذي يتضاعف يسره باطراد، لأن أبناءه كانوا جميعا في العمل.

وهكذا، فإنه بعد الخلاف الذي وقع بينه وبين تاجر سيدي بونمر اليهودي الذي كان في العادة يتنازل له عن منتوجه من الزيتون، قرر أن يجهز نفسه بمعصرة زيتون.

وقال لزوجته:

ـــ ستكون قضية مربحة.

ـــ كيف ذلك؟

ـــ لا أحد من سكان زيتونة يتجرأ على أن يرفض لي منتوجه. عند نهاية الموسم سأكتري عربة لنقل زيتي نحو مدن السهل. إنك تجهلين ذلك، ولكن الروامة لا يزالون في حرب مع الألمان، حسب معلومات جورجو الذي يعرف عما ذا يتحدث. لقد أسسوا

نظام تحصيص السلع. الأمر الذي يفسر أن بقالنا لم يعد يستلم السكر ولا القهوة. في تلك المدن على شاطئ البحر سيساوي عصير زيتوني وزنه دراهم.

كان سليمان جعل كلا من جده وصهره يستفيد كل سنة من ثلث منتوجه من الشعير والزيتون بالرغم من تردد الزوجة التي لاحظ لها.

ـــ ذلك مما يفيض على حاجتنا.

ـــ فكر في الحفاظ على طاقتك وعلى اقتصاد مداخيلك. الوقت يمر بسرعة، والعمر حين يتقدم بك سيجعلك أكثر ضعفا من طفل يولد.

كانت رفيقة سليمان توفيت بعد أن أعطته طفلين. لقد حرص على أن يحفر بيديه قبر التي غادرته بعد حياة زوجية قصيرة مؤثثة بالصبر وبالألطاف وبالطاعة الدافئة. أصابنا التأثر لما رأينا الجبار أخذ في يديه الجسد الصغير كي يضعه، بكامل الحذر، في عمق الحفرة.

صار سليمان قليل الكلام أكثر من قبل وضاعف من عمله. ورفض أن يستبدل المتوفاة، رادا جميع الاقتراحات التي قدمت له، وأوكل طفليه إلى عمه عيسى.

ثم صار كلما وقعت وفاة، وبدون أن يطلب إليه ذلك أحد، يحمل على كتفه فأسا ومجرفة ويتوجه نحو المقبرة من أجل تهيئة القبر.

فعلق شيوخ القرية:

ـــ هذا الرجل بركة من السماء.

الآن، أوقف آلتك، يجب أن أستريح قليلا وأستجمع

التذكارات خاصة. العمر خرب ذاكرتي. وعلى كل حال لن تفهم شيئا مما أقوله، وإلا كنت تعجلت على أن تعلم ما ذا حصل لسليمان والد عمر المبروك، وكنت فضوليا في أن تعرف ما جاء يفعله البوهيمي الغريب عندنا.

الفصل الخامس

نعم، عند ظهور عمر المبروك، كنا كثيرين نحن الذين تذكرنا نبوءات ذلك البوهيمي الغريب الذي كان يأتي كل عام يزور قريتنا، نصف حضري، بائع متجول، نصف مشعوذ، بلحية نبي مجنونة وشعر طويل متموج في الريح، ، مداولا مقالب وخطبا مسيحية أو ساخرة كي ينهي، من غير اقتناع زائد، بإشهاره الفضائل التي يحتويها ذلك السائل في القارورات الصغيرة المظللة. كنا نحسبه يهوديا لأنه كان يتكلم لغتنا بلكنة، ولكنه كان يعرف أحسن من الإمام كيف يزخرف أحاديثه بآيات فخمة من القرآن. إن تفاسيره المتفردة كانت تعطي الرسالة الإلهية معاني جديدة، وكان شيخنا غالبا ما يستشعر التعليق البدعي ولكنه يسكت، خوفا أن يجادل البليغ الخطير الذي نجح دائما في الإنقاص من قيمة الأدعياء المتصنعين الذين يتجرأون على مناقضته. ويبدو أنه التقط معرفته الكبيرة والمكهربة من رحلاته

الطويلة وغير المنتهية.

ـــ أنصتوا لي، أنتم جميعا، واحتفظوا بكلماتي. إني أتكلم من المستقبل وأنا لا أخطئ. لي عشرة قرون من الوجود، من غير حساب ذرات سنوات عمري. كان لي متسع من الوقت كي أزور القارات السبع وأرتكب الخطايا السبع الكبرى. أعرفكم أيها الفلاحون الورعون، الذين لا تهتمون إلا بصحة قطعان معزكم، وأعرف حالة زيتونكم وتأدية صلواتكم الخمس اليومية. ستتجمدون رعبا لو قلت لكم ما ذا كان يجب علي دفعه ثمنا لأسرار العالم المرعبة التي أردت اكتشافها. في عامي السابع دسست لأمي في فراشها عقربا لأنها لم تكن تكف عن الزنى مع المتسكعين العابرين، وحسب النبوءة، فإني خنقت أبي عندما بلغ محيط دائرة العود الذي غرسته في حلقه. انتميت إلى طائفة الحشاشين، نحْس الذاكرة. إننا معا أرهبنا بقاعا واسعة ننزل مجموعات على القرى لنذبح المواليد الجدد ورجال الحكمة. وفي ثلاث رحلات إلى بلاد الزنج جمعت ثروة طائلة أكثر ثقلا من استسلامكم. وسلحت بذلك ثلاث بواخر صلبة وذهبت إلى تحرير المصابين بالسفلس المبعدين إلى جزيرتهم النائية. وتسارعوا، بمجرد أن نزلوا، إلى نشر عدواهم عبر العالم. وهذا كان القليل من أعمالي. ذلك لأحدثكم عن ثمن المعرفة المركزة في هذه القارورات التي قلت لكم قبل قليل إني أتنازل لكلم عنها مقابل زوج صولدي نقداً.

وقّع استراحة ليتركنا نرتعد.

ـــ عرفت أجزاء العالم السبعة. لقد قطعت البلدان التي يتم فيه السير على الرؤوس، والتي لها الصيف في الشتاء والشتاء في

الصيف، والتي لها الليل في النهار والنهار في الليل، والتي سكانها لا يموتون إلا جنونا، المصابين بمرض الضحك غير المتوقف والذي تعكسه من مكان إلى مكان مراياهم. قضيت خمسة عشر شهرا في جزيرة الواق واق التي يثمر شجرها فواكه بوجوه آدمية. واكتشفت تلك المناطق الغابية ذات الجو الخانق حيث أجنحة الجحافل من البعوض تهمس أغنية مهدهدة يموت من سماعها السكان الأصليون لأنهم لا يستطيعون أن يستيقظوا. وزرت الجزر الخالدات التي لا ندخلها إلا ارتجالا والتي سكانها لا يتغذون إلا على الشعير، ويرعون المعز الذي يتركونه يموت شيخوخة ويتقاتلون بالحجارة. ووصلت إلى حد هذه الأماكن المحمومة حيث لا تغرب الشمس أبدا معاقبة النساء والرجال باستنفاد أنفسهم أرقا كي يسقطوا على ثلج لا يذوب. وصعدت إلى القُمُر، الجبل الأكثر ارتفاعا في العالم كي أحيي ناس بلاد أشاش الذين يحافظون بشراسة على أسرار العالم. ومن دودة مقززة يستخرجون الحرير الذي منه يصنعون لكم، وهم الوحيدون في ذلك، الكتان الرقيق والناعم الذي تتخذون منه عمائم. وشاهدت شعوبا تعبد الحيوانات، وآخرين لا يعبدون أي إله، سعداء بحريتهم، الذكور منهم عديمو الشكل فاقدو الإرادة يعيشون عالقين صدور زوجاتهم ذات النهود المفرطة. وهكذا، مثلكم، من غير أن يعملوا السياسة، يكتفون برضع حليب فتوة يلغي تأثير الزمن ويمحو الذكريات. فتياناً ونسّائين، فإنهم يتخلون لنسائهم عن تحمل العيش اليومي والتفكير الوجودي. وبفضل غنى لحيتي استطعت أن أخرج سالما من المنطقة الأكثر عدائية حيث يدفن الإمام المخْفَى عن أتباعه الأكثر عددا من النجوم في السماء والحجارة في الأرض، والذين في

الخفاء يدعمون عقيدتهم ويجلدون أنفسهم طوعا ويلمعون أسلحتهم استعدادا للثأر من مقتل الحسين. في يوم من الأيام سيترلون عليكم، ومن غير حياء ولا شفقة سيفعلون بكم ما فُعل بالفتى الشهيد. وتجاوزت الحاجز الذي أنشأه الإسكندر للإحاطة بأبناء ياجوج وماجوج هؤلاء البرابرة ذوي الآذان الضخمة التي تكاد تغطي أجسامهم والذين في يوم من الأيام يجتاحون الأرض ويشربون ماء الأنهار والبحيرات. وهكذا تعود بلدانكم إلى جفافها الأصلي. أعرف أنكم عانيتم من نسيان التاريخ، ومن مأساة السيطرة، ومن رعب الفقر ومن شكوك الليل. ومع ذلك فإن شروركم ما زالت في بدايتها.

لقد سكت هنيهة ثم تقدم باسما.

ـــ أنا هنا لأرفه عنكم، ولستم مجبرين على أخذ كلامي مأخذ الجد.

كان يأتي إلى زيتونة كل عام في نهاية الصيف، عندما تتبخر الأرض والأمل غبارا، كأنما لتصعيد عنائنا. إن أطفالنا كانوا يقرعون (الهلالي) بمجرد أن يظهر الطاقم في أعلى الرابية. كان الزمن، إضافة إلى خيباته، محا شيئا فشيئا العلامات التي تخلفها العربة المجرورة وهي الأخرى فقدت لون شبابها.

ـــ قطعت أنا ودبي بحار الدنيا كلها. وثلمت منها تلك التي لعمقها تستطيع أن تبتلع أساطيل بأكملها وتغرق الأجسام والأملاك من غير أن نعثر أبدا على أثر، أكثر شساعة من تلك التي تحد أفقكم الذي يظهر بالمقارنة معها مجرد بركة باء بعد التساقطات، أكثر طولا من أن يعود البحار إلى زوجته، ومليئة أخطارا ليكتشف الكافر

الإيمان. وأبحرت في تلك التي، كما يحلو للقمر، تمد وتجزر، كما ترقص الخطيبة المعشوقة التي تعلم أن عشيقها المغرّب سيعود غدا. وطفت بالبحر الميت، هكذا سمي لأنه لا موجة تتحرك على سطحه الأكثر نعومة من خط رضيع. سكينة عقيمة: إن صدره لا يغذي أي سمكة. ورأيت مركبي ضمته مياه بحار مضطربة طول العام تهيجها رياح حانقة ذات تأثير أكثر خرابا مما في أذهانكم من شكوك حول خيانة نسائكم. وقعت في شراك أولئك اللائي يأسرن المغامرين غير الحذرين. وبفكي جليدها تضم ثم تكسر قوقعة الباخرة بسهولة أكثر مما أفعله بهذه البيضة بين أصابعي، أو تفعله قائمة دبي مع رقبة أقواكم. ولأنني زحلقت عربتي على زلاجة تجرها كلاب استطعت أن أنحرف عن ظهر العالم لأجد نفسي في بلاد كل شيء فيها يسير مقلوبا. ورأيت بحارا تعج أسماكا تأخذ لون الذهب عند الغروب وأخرى يغطيها ضباب دائم أكثر سمكا من جهلكم، والتي تضل أو تنتهي إلى انسداد من غير أن تصل أي أرض، مثل وعود قادتكم في المستقبل. إنهم سيؤكدون لكم أن أجدادكم كانوا الأولين الذين اجتازوا المحيط واكتشفوا أمريكا. لا تصدقوا شيئا، ولو أن الأمر ممكن جدا. إنهم هم أنفسهم لا يعلمون شيئا، ويجب أن تحذروا.

كان يوقف عربته في ساحة التين ويأمر في الحين أحد الأطفال المحيطين به أن يأتيه بقلة من الماء البارد.

ــ يجب أن ننظف أنا ودبي حلقنا من غبار الخراب هذا.

وجاء مرة يشهر على يده أحد الكواسر الصغيرة.

ــ هذا النقار، الطائر الأكثر شراسة في العالم. لا يخطئ طريدته أبدا. ولكنه الأكثر شجاعة. يهاجم طيورا تفوق قامته أربع

مرات. أنا أكلم أولئك الذين يفقهون تلميحاتي.

كان يقول هذا في تلك الأوقات المضطربة بسبب الحرب، والتي برغمها لم يخلف وعده السنوي مع سكان القرية. كان الجنود المستغربون، الذين يرونه يشق تجاهنا طريقه بصعوبة، يتساءلون عما ذا يمكن أن يجذبه نحو مكان الغربة والنسيان هذا. كانوا يفتشونه، وكانوا يفلون عربته، وكانوا يخضعونه لاستجوابات طويلة. كانت أجوبته المستفزة والمشعوذة توقع مفزعيه في ارتباك.

ـــ أنا عميل من عملاء موسكو مقنع في لباس غجري. آتي لأعاين كيف يتدبر هؤلاء الثوار المحليون، المكونون بميزانيات ضخمة في أحسن مدارس الاتحاد، أمورهم لمواجهة أمة استعمارية ذات قوة متوسطة. ظهر لكم البرهان من فعالية أنجب تلاميذنا، منذ زمن ليس بالبعيد، هناك في آسيا، في حقول الأرز. اطلبوا ذلك من دبي فإنه سيؤكد لكم.

أما أصحاب الجبل فإنهم كانوا يرونه جاسوسا، وقد حاولوا مرتين قتله.

ـــ لن تصلوا إلي أبدا. دبي وحصانتي الشيطانية يحميانني. اهربوا، وإلا أطلقت عليكم نقّاري الذي ينتزع منكم عيونكم.

كان ذلك الارتياب الخطير يسليه كثيرا. كانت أحاديثه تنكدنا.

ـــ نعم، أيها الشجعان الذين جئتم لتتسلّوا على قرد مثلي، سيطير قبل أن يترل على فريسته. تذكروا أن النصر يكون حليف من هو أكثر عزما، وليس لمن هو أكثر قوة. أعلم أن كلامي لا يخترق عقولكم المظلمة. ولكني أومن بفضائل المثل. قريبا، سيحل عليكم

رجل نحيل يشرح لكم عبارتي. وسيكون هو الأصل في كل ما سيحدث لكم.

كان حمل معه في عربته مرة أخرى وحشا رهيبا.

ـــ اقتربوا، اقتربوا، تعالوا لتروا تحفة الطبيعة هذه.

فإن العفريت، المشدود بزمام سلسلة مربوطة بطوق من حديد، كان يتقدم بخطوات صغيرة، ورأسه الضخمة تتأرجح. فسارع إمامنا إلى تلاوة آيات من القرآن تضرعا فرددنا عليه بآمين مسموع.

ـــ آه، كلا! أيها المؤمنون الشجعان، ليس هو الشيطان، وليس هو إبليس جاء إلى الأرض ليفزعكم. إنكم، مع ما عانيتموه في هذه الدنيا، لن تتعرفوا عليه، بالتأكيد، يوم البعث. إن الله رحيم، وبلا شك فإنه سيخفف عنكم ذنوبكم الصغيرة. من ترونه أمامكم مخلوق آدمي. لا تفزعوا لمحجريه الفارغين، ونقّاري هو الذي أكل عينيه، ولا لفمه الشبيه بفم القرد الذي وسعه له مهرجون بواسطة السكين لإثارة ضحك الأطفال. إنتم تعلمون أن الفظاعة تغذي فرح الأوغاد الصغار.

دار دورة ثانية بمخلوقه كي يرعد ذهولنا.

ـــ الذين باعوني إياه يزعمون أنه خرج من بطن ملكة تكون وقفت على ما ترتب على رغبة هوجاء كانت أشبعتها.

لكني أشك في أنهم إنما خلقوا هذه الخرافة ليرفعوا الثمن.

ثم سكت فراح نظره الساحر ينتقل كفراشة من وجه إلى وجه.

ـــ سأظهر لكم ما يعرف فعله.

ربط الرجل الزمام إلى حلقة محمل وتوجه إلى خلف العربة.

قال ملتفتا:

ـــ وبالخصوص لا تقتربوا منه.

بعد لحظات عاد وعلى طرف ذراعه ديك يتململ غضبا. إن ضجيج الطير أثار الوحش فرفع رأسه. قدم له المشعوذ الفريسة. لم تلاق حركة القزم الخفيفة غير الفراغ. لكن في المحاولة الثالثة كانت أصابعه المشوهة نجحت في مسك رقبة الحيوان، ثم وقد قبض عليه من الجناحين، مزقه بعصبية. غرس العفريت قواطعه بشراهة في اللحم المرتعد الذي انفجر منه دم لطخ الفم الكبير. وخطا الرجل، متمتعا بتركه المخلوق المفترس ينهي وجبته، متقدما نحو نصف الهلال الذي هيأه له المتفرجون.

ـــ إياكم أن تتركوا أولادكم يغامرون نحوه. سيتعرضون لمصير الطير.

وغاب من جديد ليعود بربابة.

ـــ والآن، تغيير الديكور.

مد الآلة إلى الوحش الذي كان ينهي مسْح مشفره. أخذنا العجب من سماعنا موسيقى جميلة وعذبة بدت معبرة تماما عن حنيننا إلى الوادي السعيد.

ـــ أترك لكل واحد منك استخلاص عبرته الشخصية.

هكذا، كان المشعوذ ينوع كل عام من مقالبه ومن أحاديثه. لكن الدب لم يفارقه أبدا.

ـــ والآن، ها هو ما أقترحه عليكم أنتم الفلاحين الشجعان في هذه القرية الأكثر عزلة في العالم. أنتم لا تقدرون التشريف الذي ألتزم بأن أحظيكم به كل عام، أنا صاحب السمعة التي تجلب حشود

مدن العالم الشهيرة، في باريس مدينة الأضواء والحب، في موسكو أكثر جمالا تحت الثلج

من عروس مكفنة في لباسها يوم زفافها، في فيينا العتيقة المخنوقة بماضيها العريق، في لندن الأكثر مفاجأة من صباحاتها المشمسة، على شط البوصفور، في اسطنبول ذات الألف غواية، في غرناطة التي لا تتوقفون عن بكاء فقدانها، وفي سمرقند المزهوة والتي تطعن السماء بسهام قبابها، وفي بغداد الساحرة المستقرة في قلب العالم، وفي دمشق الظريفة، وفي يورشليم، المدينة، آه يا مدينتي، مدينة كل المدن، الحنون عند غروب الشمس أكثر من عناق عاشقة تلاقي عشيقها، مدينة مسجد عمر عند حائط المبكى، مدينة رغباتي المعتمة المغمورة بيد تمتد إلى رائحة الياسمين، مدينتي، يا مدينة طفولتي، مدينتي يا مدينة طفولة العالم، بحدائقك الضاحكة أكثر من أمل في الجنة، وآلاف المدن الأخرى التي عرفناها أنا ودبي الوفي. ففي كل مكان أحل فيه يجري نحوي، لرؤيتي وسماعي، أكبر الفلاسفة، الذين بفضل أطروحاتي المقدامة يكتشفون سبلا غير مطروقة لسمسرتهم، وكذلك الفقهاء المشهورون الذين أدحض نظرياتهم الأكثر تكريسا، وعلماء نابغون ابيضت رموشهم من الدراسة والذين يدهشهم علمي، والسياسيون الأكثر حنكة الذين يأتون ليتعلموا عندي فن تسيير الشؤون العامة، يشربون عباراتي كإكسير نادر، ولكن أيضا، وخاصة، الرعاع، البسطاء، الأطفال الفضوليين والمعجبين، وربات البيوت اللائي من أجل المناسبة يغادرن منازلهن مرتديات أجمل عباءاتهن، عجزة خاملون ومتشددون، ولكن مراهقون متهكمون جاءوا ليعاكسوا الفتيات في ألبسة خفيفة اللائي يدسن على الأرض مستعجلات ليرتعدن رعبا،

وأيضا أرباب عائلات وقورون يريدون أن يتسلوا عن عمل أكثر رتابة من حياة بلا عشق، وخليط من الصعاليك الصغار الذين يجذبهم التجمهر، مثل سراق الجيب والعربات والمعروضات وكذا الخاطفون، ولكن أيضا المتعجرفون والمتصنعون والمستعرضون والأدعياء والمتبجحون والمهذارون والمتكلفون والمتشدقون، وأخيرا أقوياء العضلات الذين يختالون في مقدمة المنصة أكثر كبرياء لقوتهم من مصارعي المعارض وأشد خيلاء لعضلات أذرعهم من رياضيي السيرك، والذين عاركهم دبي وهزمهم، دبي الذي لم يلو ركبته أبدا، دبي هذا، دبي الذي هو اليوم أمامكم يجدد تحديه.

سكت المتحدث، مثبتا حركته، تاركا المستمعين يستوعبون معنى حديثه قبل أن يواصل:

ــ أعرف أنكم لست سوى فلاحين بسطاء مهتمين فقط بالحصول على عيشكم اليومي الذي يجب أن تحصلوا عليه من أرض جحود كما أعرف عنكم أشياء أخرى كثيرة، وما أصاب أجدادكم من عداوة كي يغادروا سهل الزنابق والوفرة ليلتجئوا إلى هذه الأعالي الحامية ولكن العقيمة، والذين مقابل تحصنهم كان يلزمهم أن يقايضوا الأمل بالاستسلام، والحصان بالحمار، والنعجة بالمعزة، والكتابي بالشفهي، والمعرفة بالتطير، والعلم بالسحر. وأعرف أيضا أن شراسة الوجود مررت إليكم طعم الألعاب واللعب وصارت لا تعجبكم القوة والاستقامة من أجل ما هو غير ذي فائدة. أنا لا أرمي لكم تحديا إذاً، ولكن أدعوكم إلى تجربة ودية. إن من يغلب منكم دبي يستطيع أن يضمن مجده. سأسحب له صورة وأذهب عبر العالم أغني مدائحه.

بالطبع، فإنه لا أحد منكم سيتجرأ على الاقتراب من دبي.

ـــ هيا، هيا، شيء من الشجاعة! أعد المرشح الأول بعشرين قارورة من إكسيري العجيب.

لم يغير الاقتراح أحدا.

وأشار المشعوذ بالإصبع، بعد أن تفحص طويلا الحاضرين، إلى سليمان الذي كان يلاحظ المشهد من الصف الخلفي.

ـــ أنت، العملاق، هل تريد أن تقيس نفسك مع دبي؟

خلع سليمان برنوسه وتقدم في مواجهة الذي يقف على راحة قوائمه الأربع، والذي لإتقانه دوره كما درب عليه، بدأ يزمجر ويمخلب الهواء في الوقت الذي اقترح عليه معلمه المبارزة.

وقع الصمت.

صرخ حضْريّ الدوار:

ـــ ها هو رجل شجاع يشرف القرية، ولأن الجولة غير متكافئة كما يبدو لي، أمنحك إن انتصرت كشف سر المسيح وفضل الموت قبل بلوغ العمر الهرم في غروب يوم ذي دفء ربيعي. انزاحوا، انزاحوا، اتركوا لهما الفضاء الكافي. أيها الرجل، أنذرك، دبي لم ينهزم أبدا.

نعم، أنا نفسي الذي أكلمك، أستطيع أن أشهد لك بذلك، رأيته بعيني الخالصتين: انتصر سليمان. بعد أن أدخل الملتحي دبه في عربته وبعد أن جمع أدواته، قال لنا:

ـــ عشت اليوم تجربتي الأكثر إذلالا في وجودي الطويل. لأول مرة رأيت دبي مرّغ. في كل عام، في الفترة نفسها، سأعود هنا لأجدد تحديّ. لن أتوقف إلا بعد أن أرى بطلكم على ركبته.

هكذا، في نهاية كل سنة، كانت المعركة تتجدد بين الإنسان وبين الحيوان. انتهى سليمان، منتصرا بصفة منتظمة، بأن وضع تلك المشاجرة الدورية في فصل الأعمال الفلاحية الكبرى. كان الزمان يمر من غير أن تتنازل في الخصمين حميتهما.

إلى أن لوى الرجل ركبته.

ـــ لن أستطيع أن أبقى بعد هزيمة. أنا ذاهب، ما دام دبي انتصر على لاعبكم. لن تروني أبدا.

جمع سليمان برنوسه في صمت وعاد إلى حقله. وفي الغد تم اكتشافه مستندا إلى جذع زيتونة. كان كف عن الحياة.

نعم، هكذا مات سليمان، والد عمر المبروك ووردية الشقراء التي كانت تكبر بين أطفال عيسى الأقجع.

قبل أن يختفي المشعوذ كان أضاف:

ـــ يجب أن تعلموا أن أشراركم بدأت. رأى الابن أباه يتضرج في الغبار من غير أن يتجرأ أحدكم على مساعدته. لن ينسى.

الفصل السادس

أعلن نازلا من السيارة.

ـــ الحرارة أشد مما هي عليه في فرج معزة.

عندما واجهنا عمر المبروك، بعد أن نزع نظاراته ليمسح وجهه، تعرفنا حينا على النظرة الحاقدة المنبعثة من الطفل الذي كان يركزنا من خلال فجوات جذوع الكرْمات الثلاث المتعبة، بينما كان أبوه ملقى أرضا يستنجد تحت ثقل الدب. ومع ذلك فإن هيئته تغيرت. إن ذاكرتنا احتفظت بصورة لمراهق جاف وحاد، الجبهة عنيدة، وكنا نتأمل رجلا اشتعل شيبا، الخدان مدورتان وعامرتان، والبطن خارج، اليدان ممتلئتان، وحلق متدرج الثنيات الدالة على أن الرجل يأكل ملء جوعه.

وكرر.

ـــ يا لها من حرارة!

أعاد نظاراته وتقدم نحونا.

لا، لم يتكلف بأن يترع عن عينيه القناع، كأنه نسي أن ذلك يشكل أكثر من قلة أدب، وأكثر من المرور بدون إلقاء السلام، وأكثر من الأكل باليد اليسرى.

ذهب الإمام إلى ملاقاته، والعيون جميعها تتابعه. وعلى خطوتين منه تثبت مميلا رأسه كي يقدم عمامته للقبلة المنتظرة.

لكن عمر المبروك سوّى صدره مستقيما، الوجه إلى أعلى مرفوع، كأنما هروبا من رائحة كريهة.

بعد صمت محرج أعلن شيخنا:

ـــ أهلا بك في قريتك.

أدار عمر المبروك عنه ظهره وذهب لينغرس في مركز الساحة. جال في الأنحاء ببصره المحمي دائما، قبل أن يقول:

ـــ أعاين أن لا شيء تغير منذ مراهقتي. قريتكم دائما مهملة، كأنها دشرة مكسيكية. كل هذه الخِرَب المجمعة حول الساحة. لم تكونوا قادرين حتى على وضع نصب تذكاري للأموات مزين براية للدلالة، على الأقل، على أنكم لم تعودوا تعيشون تحت النير الاستعماري.

ثم، وهو يخنق بداية ضحكة:

ـــ ولكن، هل تجيبونني؟ ليس لكم أي اسم تسجلونه؟ صحيح ولأنكم جبناء، وبرغم جميع أنواع الإذلال التي تعرضتم لها، فإنه لا أحد منكم فكر في الصعود إلى الجبل للالتحاق بمكافحي الحرية، كما أنه لا أحد منكم قدم العون لأبي الذي عض التراب تحت مخالب الحيوان. لقد كنتم مع ذلك كثيرين والأغلبية منكم

كانت في قوة عمره. ومع ذلك لم تكونوا تكفون عن استخدام سليمان الذي كان يحفر قبور موتاكم ويساعدكم على اقتلاع الحجارة الكبيرة من حقولكم، يقطع وينقل الجذوع الضرورية لبناء بيوت الفتيان المتزوجين. إذا كان أبي قبِل مواجهة الوحش فإنه للدفاع عن شرفكم. ومات من أجل ذلك. إنه ليس الدب، ولكن جبنكم هو الذي قتله.

اقترح على بسمة مفاجئة ساخرة:

ـــ ما دمتم قد اعتبرتموني ميتا فإنه كان عليكم على الأقل بناء نصب لحفر اسمي. ذلك كان يمكنه أن يخلصكم مني.

بدأ يهز رأسه بندم.

ـــ ربما كنتم على حق عندما أعطيتم ظهركم. إن الاضطراب انتهى بأن مر من غير أن يصيبكم. ولكن هذه الاستراتيجية لن تنقذكم في مستقبل يفغر أمامكم.

بعد وقت من التردد ذهب ممثلنا البلدي للالتحاق به.

ـــ أنا محمد. هل تتذكرني؟

للمرة الثانية فإن الوالي انتزع نظاراته المعتمة، فوجد محمد ذلك النظر الحاد، الصلب كالألماس الذي يجعل سخرية قاسية تشع.

ـــ بالطبع، أنت جلول ولد الحداد (النياطي).

ـــ لا، ولد مسعود الأزرق.

ـــ على كل حال، ما أتذكره أنك كنت الطفل الأكثر جبنا في القرية. كنت دائما خلال مغامراتنا تتبعنا من خلف محاذرا ومستعدا لأن تختفي لأقل خطر. هل تكون تغيرت؟

ـــ أنا الآن نائب رئيس البلدية مكلف بإدارة زيتونة.

ـــ هذا ما كنت أقوله: دائما في الخلف. أين هو رئيسك؟

ـــ إنه في سيدي بونمر، مقر البلدية.

ـــ لن تتغيروا أبدا: دائما تحت الوصاية، دائما الثانيون، دائما قُصّر. ستبقون مثيرين للشفقة. أنا أعرف ما ذا أقول، أنا ولدت منكم.

ـــ أريد أن أرحب بك.

ـــ لقد تم ذلك، شكرا.

ـــ أريد أن أقول رسميا.

ـــ ورئيسك المحترم لم يعتقد أنه من الضروري أن يرفع طيزه عن الكرسي ويأتي لاستقبالي.

ـــ ومع ذلك كان أعلم.

ـــ هل أنت تذكرني بأنه يجب أن أدفّقه.

ـــ بالضبط.

ـــ الأمر الذي سيسعدك، أعرف ذلك. أنتم لا تعيشون إلا حزازات متجددة. لقد رفضتم الرسول لأنه منكم. إن قدرتكم على الحسد لا تنفد. نعم، أعيّنك مكانه. الأمر الذي لن ترفضه. أتصورك من الآن وقد أصابك فيروس السلطة. ولكن صدقني فإنك لن تبتهج طويلا. ستصبح رهينة، وستعرف العبودية القصوى، كما سأعلمك كيف ستعبد ما كفرت به وكيف تكفر بما عبدته.

نزع عمر المبروك ربطة عنقه بغضب، وأعاد نظاراته وأخذ جانب الشارع، ملاحظا سكنات ذات هندسة تقريبية، ببيوت غير متوازنة وبأبواب منحرفة وسقوف مضطربة.

كان محمد يتبعه عن بعد.

ـــ حتى الشمس تضرب أكثر من قبل.

فأبدى له ولد مسعود بسمة محاباة.

ـــ أعتقد أنه بمجيئك ستتغير الأمور بسرعة.

ـــ كن متأكدا من ذلك.

ـــ نحن سعداء جدا.

ـــ أعاين أنك بقيت المنافق المثالي الذي عرفته.

فخفض ابن الأزرق رأسه. ورغب فجأة في إدارة ظهره، تاركا هناك هذا الرجل الذي يسبه.

في اللحظة خرج بسرعة طفل في العاشرة من عمره من شارع صغير يتلولب بين المنازل. كان صنع مروحة من القصب وراح يحركها كي تدور جاريا بسرعة مشرعا ذراعه ضد الريح. فاصطدمت شفرات المروحة ببطن الوالي ونزل الطيار المتدرب بعنف، ذقنه إلى الأمام.

فصرخ الرجل المصدوم:

ـــ ابن العاهرة!

ثم وجه للطفل الذي كان يحاول القيام ركلة هائلة كادت تطير به نهائيا.

ـــ يا حقير الخرأ، لو قبضتك فعلتها فيك.

فاستقام الطفل من جديد، فمه مدمى، والخد متورمة، وهرب مسرعا.

ـــ هؤلاء المغرورون لم يتغيروا كذلك.

فقال له محمد:

ـــ ذاك ابني.

فاستعاد الوالي سيره جارا خلفه منتخبنا المتردد. وأسر إليه.

ـــ لقد نالوني مثل مبتدئ. لست في حاجة إلى ولايتهم. ما كنت أنتظره هو سفارة. راتبا مميزا كله بالعملة الصعبة، وإقامة واسعة في قلب عاصمة تضج خدما، وسيارة فاخرة بسائق يخدمني من الصباح إلى المساء، ينتظر متعتي، والحظوة بدعوة من أريد بمصاريف الدولة بمن في ذلك أخداني والفتيات مرورا، أولئك اللائي أصطادهن خلال حفلات الاستقبالات الرسمية، وهؤلاء اللائي أحملهن من على الرصيف أثناء تفسحي بعد الشرب، فإن زوجتي المسحورة دائما بدكاكين الوفرة والتي تتركني في سلام، محررة إياي أمسّح الطرقات والإناث. الحلم، يعني.. ولكنهم لم يقترحوا علي سوى بلد يقع في طيز العالم، شاحب وخابئ حتى لا خارطة من خرائط العالم تحدده، لديموقراطيته فإنه لا يحكمه رئيس دولة. لمن كان إذاً يجب أن أقدم أوراق اعتمادي؟ ربما كنت مت انزعاجا وحنينا. بالطبع، رفضت. فإذاً نسوني طويلا ليعهدوا إلي أخيرا بهذا المنصب من غير أن يستشيروني. إنها طريقة لإرجاعي إلى دواري الأصلي. لقد وسّخوني، السفَلة. كأن طفولتي لم تتخبط في الطين. وسأجد نفسي بين القرويين الذين ينتظرون كل شيء مني، أن أخفف من حرارة الشمس أو من شدة البر، وأن أولّد النساء العاقرات وأسقط المطر وأعيد الحياة إلى الأعضاء العرجاء. آه! الخسيسون!

وصل الرجلان إلى طرف القرية حيث توجد ثلاث فيللات لمعمرين قدامى.

استفسر عمر المبروك.

ـــ من يحتلها؟

ـــ هذه تستعمل للملحقة البلدية ومكتب البريد. الإمام وأنا نتقاسم الثانية.

ـــ أعاين أنكم لا ترفضون شيئا. كما هو في كل مكان فإن أعيان القرية يبدأون بأنفسهم.

ـــ المحامي يسكن الثالثة.

ـــ المحامي؟ أي محام؟

ـــ محامي ذاك الوقت.

ـــ الرجل الصغير؟ هو أيضا أرسلوه هنا؟ ذلك أحس للغْبه. كان يمكن أن يكون دائما وزيرا لو لم يلعب دور الماكر. إنه من أولئك الرجال الذين يعتقدون أنهم قادرون على إعطاء أنفسهم رفاه الوعي. لم يفهم أن السلطة والوعي متعارضان؟ وعلى كل حال، ستحررون لي الفيللتين الأوليين في الثمانية والأربعين ساعة. إدارتي في حاجة إلى أن تنصب مصالحها الأولى.

ـــ ولكن...

فصرخ عمر المبروك عاقدا حاجبيه.

ـــ لكن ما ذا؟

ـــ وأين نسكن عائلاتنا؟

ـــ شأنكم. هذه السكنات ملك للدولة، وأنتم تحتلونها بصفة غير شرعية. أنت لا تريد أن تبقى في وضعية غير قانونية لأنك صرت رئيس بلدية زيتونة.

ـــ ومع ذلك..

ـــ خراء؟ واش، لم تستوعب إذاً شيئا مما كنت أشرحه لك قبل حين. إنه قد بدأ بالنسبة إليك زمن الأذن المنصتة والطاعة

العمياء. انتهت الأحاديث، انتهت الاعتراضات. أنا آمر وأنت تنفذ. واضح؟ جيد. أعتبر المسألة مصفاة.

ثم، غير الموضوع فجأة:

ـــ هل تعلم الشيء الوحيد الذي تغير في هذه القرية، أشجار اليوكليبتوس كبرت أكثر، وللضجيج الذي ينبعث من أغصانها فإنه يجب أن يكون بها مليون من الطيور. ذلك في النهاية شيء مصم. ألا يزعج ذلك قيلولتكم؟

راقب ساعته.

ـــ فات الوقت! هذه القرية لبعدها يبدو الذهاب إليها حملة حقيقية. من يقول إني سأستقر هنا.

رجع عمر المبروك طريقه مسرع الخطى يقْطر خلفه المنتخب البلدي. ولما وصل إلى ساحة التين أعلن إلينا بصوت قوي:

ـــ اسمعوني، أنتم تعرفونني جميعا: أنا ابن لهذه القرية. لن تستطيعوا أن تقولوا إنكم منسيون، متروكون لحساب الثورة. من الآن فصاعدا نبني هذا البلد، وسننشر الازدهار والعدالة، وسيزهر من حولكم نبات متسلق يزين الجدران وضحِك الأطفال، كما في السابق في الوادي السعيد. إن عملا مثيرا ينتظرنا.

وتوجه نحو سيارته. وفي تعجّله وضع رجله على براز حمار، مع احترامي لكم. وأخذ يلعن نافضا نعله ثم دخل سيارته وأقلع في الحين.

لاحظ الإمام قائلا:

ـــ إنه لم يسألنا حتى عن أحوال أخته.

نحن نتذكر جميعا طفولة عمر المبروك الطائشة. كان شيوخ ساحة التين، في خمولهم الذي يشبه سكون تمساح يترصد فريسته، لاحظوا مبكرا اضطراب الشيطان الصغير، متخوفين من أن يرث نزعات من جده، حسن المبروك الفظيع الذي قصصت عليك حكايته.

نحن نستحي ولكننا لسنا مغفلين. هناك أشياء كثيرة لا نتطرق لها أبدا ولكنها حاضرة دائما في أذهاننا. إن كنا لا نجهل الأفعال الوحشية أو المضادة للطبيعة والتي يقوم بها سفهاؤنا فإننا نؤمن أنه باسم الأخلاق لا يجب قبولها لا بالكلام ولا بالسلوك كيلا نبتذلها. نحن نكتشف بسرعة عند مراهقينا المظاهر الأولى من أعراض الهيجان ولذلك لا نتأخر في ربطهم بعذراء شابة. إن عوائدنا تقبل أن تستقبل الأرامل والمطلقات في كتمان أولئك المراهقين بشرط أن يبدين حذرا كيلا ينتج عن ذلك ما يلطخ شرفهن أو شرف الزوج الذي يمكن أن يعرض على إحداهن زواجا جديدا. ولكن كل والد يحث قرينته على تحذير أعذره الصغير من أخطار فتنة أولئك الهجّالات. فإن هناك من ارتبط وبالغ إلى حد الزواج. وكان ذلك يتم في استنكار عام. لم يكن ذلك عقلانيا. و لم يسفر إلا نادرا عن اتحاد متوازن.

نحن نعلم أيضا أنهم خلال سفرهم إلى مدن السهل، إلى ما وراء النهر الكبير وإلى ما وراء السكة الحديدية، لا يترددون في تجريب تلك المشروبات المحرمة التي تجعلهم يتقيأون، ولا في زيارة بيوت الفرح حيث لا تؤخذ منهم الدراهم فقط ولكن أيضا الاعتداد بالنفس. إننا نتركهم يفعلون، مقتنعين بأنهم سيعودون أكثر هدوءا،

معتقدين أنهم استهلكوا متع العالم كلها في نهاية رحلتهم القصيرة.

ولكن عمر، ذلك العفريت، كان يبدي كثيرا من الجنون الثابت في تلك الأفعال المؤسفة والتي لم يستطع حتى اللبق منا أن يقول عنها كلمة لوليه عيسى عصّار الزيت. ولكن الرجل العجوز لم يكن يستطيع سوى رفع ذراعيه إلى السماء.

ـــ أدعو الله أن يعيده إلى الطريق القويم.

كان العربيد لا يظهر أي احترام للكهول، ووصل به الحد إلى أن يرد على توبيخهم إياه. وكان لا يتحرج في رفع عينيه نحو النساء المارات. ففي الخامسة من عمره كان رفض أن يرعى عنزات وليه، كما أنه اكتفى بدرسي الإمام الأولين قبل أن يهجر حصائر المدرسة القرآنية. إن عنف ألعابه لم يكن يعرف الحدود. ففي يوم من الأيام، مزق بسبابتيه، معقوفتين، شفتي الابن البكر لجلول الحداد. إن الطفل المسكين، لتشوهه، صار من الصعب عليه فيما أن توجد له عذراء غير مصابة بأي عاهة. إن مال أبيه ساعده كثيرا. كان عمر يتعدى، يسرق، يكذب إلى حد أن ألزم حكماؤنا جده بأن يسلط عليه عقوبات قاسية. فإنه، وقد رُبط كاحلاه ومعصماه وتُرك عدة أيام بلا طعام ولا ماء، تظاهر بأنه تاب واعدا بتصحيح نفسه مترجيا أن يصفح عنه، ولكنه بمجرد أن وجد حرية حركاته استعاد عوائده وبدا أنه ضاعف من هوْجه.

فلم يكف عن الرغاء في جوانب جبالنا العارية، ناصبا فخاخا للذئاب، مستغلا المعزات الضالة، متحرشا بالفتيات اللائي يذهبن إلى جلب الماء من العين.

وأخذ يسافر غالبا إلى سيدي بونمر ليشترى زجاجات الخمر

التي يخفيها داخل خشاب قبل أن يذهب ليقف قريبا من الجسر ويثير جميع العابرين إلى الشجار.

ويصرخ رافعا عصاه.

ــ أريد أن أنيك أم كل الذين يأتون والذين يذهبون.

قامته كانت تثني كل إرادة.

جاء مرة، تحت التهديد بهراوة، بسوزان بنت المعمر مارصيال إلى قعر منخفض كي يغتصبها. ولما كانت عادت لم تبلغ عنه. ولكن في بلد مثل بلدنا كل شيء ينتهي إلى أن يُعرف.

كان مارصيال وصل عندنا قبل قليل من تلك الحرب التي كان يجب أن تُذهب بجورجو إلى ما وراء البحار. كان اشترى بثمن بخس ملكية كالابريه. إن هذا الأخير، الذي جاء متأخرا، لم يكن ليستفيد إلا من جزء من منحدرات جرباء من جبالنا. حاول أن يفلح القمح ثم التبغ قبل أن ينثني، زيادة على أن لا أحد منا قبل العمل عنده. كان في الواقع يعب غالب مدخوله شرابا روحيا أخضر.

ــ لن أتردد في هجر هذه المنحدرات القاحلة مقابل ثمن هكتار واحد في السهل.

قبِل مارصيال الصفقة. كان يضحك تحت القبعة يوم دفّق أدواته من الطنبور على بعد خطوات من شجرة اليوكلبتوس الضخمة.

وأعلن بلهجته الغريبة.

ــ اطمئنوا، لست هنا من أجل منافستكم. أنا آت من بلد أكثر شراسة من بلدكم، وليس لي أي رغبة في فلح الشعير أوفي تربية الماعز. أعرف ثقل أتعابهما.

ثم عاود ضحكه.

ـــ سأتكرس لنشاط أكثر مردودية.

رجل عجيب، هذا المارصيال. لم تكن تعنيه ملكية الكالابريه، ولكن محاذاة الغابة الكبرى التي تكسو الجبال المجاورة. كان شحن على بغله كمية من البنادق ومن فخاخ للذئاب وتوجه إلى الغابة حيث يقضي أسابيع عدة. وكان يعود بحيوانه محملا بالفرو، موزعا ضحكة خبيثة، ردا على تحيات كل فلاح لاقاه في الطريق. وبعد أن يملّح الجلود يتركها تجف تحت الشمس في تظاهر كأن ذلك يذهب عنها ما يصيب القرية من رائحة العفن الكريهة. ثم يكدسها في الطنبور ليسوقها في سيدي بونمر.

ويؤكد لنا محتفيا.

ـــ سترون، سترون.

فعلا، إن تلك التجارة ظهرت مثمرة، وحصل مارصيال على يسر سريع. وكان من أثر ذلك على مارصيال أنه ضاعف من كثافة صوت ضحكاته، ومن محو آثار القبح من ملامح وجهه، ومن نفخ صدره ذي الجوانب المنحوتة.

وبدأ في توسيع البيت الحقير الذي تنازل له عنه الكلابريه، ثم وبعد انتهاء الأعمال، راح فاقترح ثروته الجديدة على أرملة من سيدي بونمر كان أعجب ببسالتها في العمل إن لم يكن بجحود جسدها. كان زوج العذراء الأول، المكلف بشد المكابح على عهده، قطعته نصفين العجلة الحديدية لعربة قطار خلالا مناورة. فالغفوة التي تلت الوجبة المرشوشة جدا لم تسمح له بأن يدير المقود بسرعة. كانت السيارة التي تتقهقر دفعته. اصطدم بعارضة وانتشر فوق

السكة.

لم تطلب القبيحة، سعيدة بالنعمة غير المتوقعة، الزواج بعرس ثان. واستقرت المزوجة في زيتونة وبدأت في الحين تعطي من قلبها للعمل لزوج بدأ نجاحه يخفت.

كانت لهما بنت توصلت إلى أن تجمع بشاعة الأمومة والأبوة.

كان بائع الجلود أعلمه زبونه يوما في سيدي بونمر بوجود منافس شاب. فاختار مارصيال أن ينفجر ضحكا.

ــ منافس؟ ألأنك تتصور أنه من السهل القبض على القاقم، والسمور، الثعلب أو السرعوب، الأرنب أو الذئب؟ أتمنى له الحيلة.

وفي طريق العودة، وقد اختفى من على وجهه كل ضحك، فإن الرجل ذا النظرة الشزراء بقي متحيرا. ولأنه أخذه شك فإنه بدأ يعد الجلود التي وضعها تجف. إلى اليوم الذي فيه رفعت ماسورتا البندقية ذقن عمر.

من باب المستودع دفعت سوزان بصراخ ثاقب.

هكذا علم مارصيال العشق المذنب بينها وبين المراهق. لم يبد أي تأثر، ولكنه لم يقبل بسهولة اختفاء جزء من جلوده. ربط السارق إلى عمود المخزن وبدأ يستنطقه. ثم عاد إلى بيته.

ولما استعاد مزاجه رجع إليه فيما بعد الغد.

قال له.

ــ اسمعني. فكرت جيدا. قررت أن لا أسلمك للدرك. أرجوك أن تتمرغ في الأشواك مع هذه الحزمة، التي هي سوزان، عندما تأتيك اللذة. لا أريد أن أحرمها من نعمة مماثلة. ولكن عندي

اقتراح أعمله لك. أنا شخت، ومفاصلي المسكينة صارت تتحمل أقل فأقل تلك الجولات الطويلة في الغابة، ورطوبة الليالي. هل تريد أن تشترك معي؟

فكر عمر بدءا في استعادة حريته. ووافق حينا.

ـــ سأعلمك فن وضع الفخاخ والأطواق وجذب الأرنب. بتجربتي وبشبابك سنغتني سريعا، أتكهن لك بذلك. إنك لا تقدر كم هي الثروات التي سنجنيها من وراء البحر.

يجب أن أصف لك سوزان هذه. الروامة، كما تعلم، جميلون جميعا. ويكادون يكونون مكتملين لولا لون عيونهم غير المحتشم. ولكن الله شاء أن يجمع في تلك الفتاة كل القبح الإنساني. لقد أعطيت جسما سميكا وخشنا أكثر ثقلا من حجر رحى. كانت لها هيئة أمها الجلفة وعيون صياد منحرفة دامعة. كان جفناها اللذان بلا هدبين مصابين باستمرار باقيين طعما للذباب. ووجنتاها الباهتتان تشبه أوراق الخريف الميتة. وشعرها النادر الجاف يجعل قشرة رأسها تبرق تحت الشمس. وشفتاها القصيرتان تكشفان فم أرنب. كانت رائحة فمها منفرة من بين جميع الذين يأكلون الخنزير، والصبغ الأزرق، يعني أكحل. أنا أحدد لأننا نجد من غير اللائق نطق تلك الكلمة.

ومع ذلك فإن عمر المبروك استقر عندهم وقضى لياليه مع الغولة.

النظر إلى وردية، أخت العفريت، تجعلنا نعتقد أن رضوان، لإهمال منه، نسي أن يغلق أبواب الجنة، وهكذا سمح لملاك أن يهرب.

لون التمر الناضج، في أقاليمنا هناك، يشير بلا التباس إلى

الفلاح ذي البشرة، التي أعادت الشمس إنضاجها، لقضاء نهاراته في الكد في الحقول. وفي ما يخصنا، فإننا نعتبر امتقاع البشرة علامة تمدن، أرستقراطية، وغنى. إن العذارى ذوات اللون الناصع هن المرغوب فيهن دائما، على أن يكون لهن أدنى حد من عرض الورك وثقل الردف. فما إن تدرك بناتنا البلوغ حتى يبدأن في تجنب أشعة الشمس وفي تدهين وجوههن وأيديهن بتلك المراهم التي تنعش الإشراق. كنا نتساءل من أين كان لوردية، الأكثر شقرة من سنبلة قمح يوم حصادها، ذلك الوجه المشع كقمر ليلة اكتماله. وما يجعلها أكثر جاذبية حركاتها اللطيفة وكلماتها العسلية. إن البنت تبدو حازت بشكل خارق الأولية في حب المعروف والتأدب الفائق. إنها لم تتلكأ أبدا في ملء القربة المعلقة في فرع إحدى شجرات التين ماء باردا. سريعة الرد دائما على التحيات والأمنيات. كانت الطفلة تسحر من يلاقيها صباحا النهار كله.

لكن إذا كانت كل تلك المواهب تمتع النظر والسمع فإن ذلك ليس بدون مخاوف منا ونحن نشاهد أخت عمر المبروك تكبر. إن تلك الفتن المجتمعة لم تكن تتأخر في إشعال نيران الرغبة لدى مراهقينا. نحن تعلمنا كيف نخشى التشوش ومآسي الشغف التي يحدثها الجمال. نحن ورثنا من أجدادنا المتوثبين طعم التحدي وسرعة الحركة. إننا نقتل من أجل كلمة، بسمة، نظرة. ولأننا نجد أنفسنا بلا أعداء فإننا ندير بنادقنا ضد أنفسنا. إن إهانة بسيطة يمكنها أن تنجر عنها مقتلة لا تنتهي.

لكن وردية كانت تظهر أنها تعمل على تتفيه مخاوفنا. سلوكها كان جديرا بكل تقدير. ولما أدركت وردية العمر الذي فيه

تشعر عذراواتنا بأولى رغبات أجسادهن وتبدأن، بحياء، في استمالة أبناء الأعمام، ضاعفت من احتشامها رافضة أن تنجر إلى تلك الألعاب. وفهمنا أنها لم تفر من نظرات الاستحسان والتظرف إليها، بدافع أن تبدو لطيفة أكثر.

من جانب آخر فإن أخاها، الذي لا يصلح لشيء، كان الشخص الوحيد الذي قبل أن يسمع. غير مبال بالتهديدات، بالضرباب، بالعقوبات، فإن عقد حاجبين من أخته كان يكفي لتهدئة اضطرامه. لم يكن هناك سوى صوت وردية ليثبت ذلك المحارب العفريت خلال شجار وذرعاه متأرجحتان. وكنا غالبا ما نشاهد الأخت الصغرى تقود بيدها الأخ الذي هدأ فجأة. إن النساء كلهن أخذن العادة في التشكي لها من تجاوزات الصبي الوقح، وإن عيسى ذاته أفرغ عليها خلسة التكفل بتربيته. ولكن بمرور الوقت فإن العفريت كان ينفلت من تأثيرها عليه. وصار نادرا ما يدخل إلى الدار، مفضلا أن يقضي وقته في التجول في الطبيعة حيث لا تستطيع البنت الشابة، يمنعها الحياء، أن تذهب في عقبه.

ولما علمت وردية أن عمر استقر عند مارصيال، ليصيد له الحيوانات المتوحشة ويرقد مع ابنته، دخلت في غضب أعطانا حرارة في قلوبنا.

ـــ هل فقد إلى هذا الحد كرامته كي يقبل أن يضع نفسه في خدمة كافر؟ هل تم الاستحواذ عليه إلى حد أن يقبل مقاسمة النوم مع غولة منتنة لا تحلق أبدا عانتها ولا تغتسل بعد الفعل.

وشتمت نصف يوم من غير اضطراب، ثم رأيناها تخرج إلى الشمس، عارية، ابنة الخامسة عشرة، أكثر إدهاشا من النجمة القطبية

في وضح النهار.

وبخطوة حانقة اتجهت نحو فيللا المعمر. لقد ظهرت من جديد بعد ساعة تجر وراءها أخاها مرتجفا، خجلا. ولكننا لم نشك في ما كان سيحدث في ذلك المساء. إن خيوط النسيج كانت حبكت من غير علمنا. إنه لا يجب رمي الحجرة إلى أي شخص. فإن قدر كل واحد منا مسجل في كتاب العالِم العظيم. اللاواعي وحده هو الذي يعتقد أنه سيد مصيره. وبرغم تشدد أخلاقنا لم نستطع إدانة وردية إضافة إلى أنه لا أحد منا كان يعلم الظروف الدقيقة التي جرت فيها المأساة. الله وحده هو العليم.

ولكن، واليوم كذلك، نحن نحتفظ بالجرح. سأحدثك عن ذلك لاحقا، لأنه يجب أن أقص عليك الآن قصة المجذومين.

الفصل السابع

بعد ثلاثة أيام من زيارة عمر المبروك، جاء شرطي على دراجة نارية، لابسا الجلد الأسود وجزمة وقبعة ونظارات، وألصق ورقة على باب الملحقة البلدية. فأعلمنا ولد علي، استعجاليا، أن التعليمة تنص على أن الطرق العمومية صارت ممنوعة على الأغنام والأبقار والعتري والخيل وكل الحيوانات الداجنة، ذات الظفر أو غيرها، ذات الاثنين أو الأربع، وكل دابة مخالفة ستقودها قوات حفظ النظام إلى إسطبل سيدي بونمر البلدي. وفي ظرف ثلاثة أيام تعرض في المزاد العلني إذا كان مالكها لم يدفع الغارمة ويتم التنازل عنها قانونيا إلى المزايد مقابل مبلغ عرْضه والذي تضاف إليه عشرة في المائة من الرسوم.

علم رابح حارس الغابة باندهاش من فم علي أنه صار ممثل قوات حفظ النظام وأنه أصبح مكلفا بتطبيق القانون.

فألح.

ـــ أنا؟

فأكد له ولد علي.

ـــ قطعا.

ـــ ولكن أين هي الطرق العمومية؟

هذه الأزقة الضيقة المتعرجة؟

وبعد خمسة عشر يوما رأينا من جديد السيارة المؤكْرمة والتي تبدو قُضيباهما تريد مضاعفة أشعة الشمس. وتوجهنا في الحين إلى إيقاظ محمد الذي كان يقوم بقيلولته على حصير المقهى. فخرج مسرعا حاكا عينيه.

فما إن وضع الوالي قدمه أرضا حتى رمى له:

ـــ كيف تستطيع أن تنام بالرغم من جوقة الطيور هذه؟

كان محمد سيهز كتفيه لما انفجر السؤال الثاني:

ـــ إذاً، هل أفرغت الفيللا؟

لم يكن ابن الأزرق، لم يكن وجد بعد صفاءه، وأخذ يتلعثم.

ـــ لن تخدعوني، أعرفكم كثيرا جدا. تحت قناع طاعتكم تبقون مكارين ومخاتلين. فكذلك أعطيتم البديل للمستعمر، ولكن ذلك لن يفوت معي. إذاً، فلنكن واضحين: فإما أن تخلوا المساكن في الساعات اللاحقة وإما أن الدرك سيأتون ليخرجوكم أنتم ونساءكم وأطفالكم ركلا بجزماهم على أطيازكم.

وبسبابته أشار إلى محمد بأن يتبعه وأدار إلينا ظهره. خطوا بضع خطوات ثم تثبت الوالي. وقهقه بالرغم.

ـــ الزنقة الوحيدة في هذه القرية أشد تعرجا من أذهانكم.

بصراحة، هل تستطيع أن تقول لي كيف أجعل من هذه الدشرة مقر ولاية مقبولا؟ هل تسألني: ولكن لما ذا تم اختيار زيتونة؟ ولأنني عايشتهم طويلا، فإني أفهم بالضبط حسابات أولئك المخادعين الذين يحكموننا. فما إن كنت خرجت من مراهقتي حتى فهمت أنني لن أكون إلا رابحا عندما أعاشر كبار هذا العالم. وهكذا، وقد توصلت إلى الجبل، تخليت سريعا عن رفاقي القرويين من زيتونة من أجل محاولة الاقتراب من أولئك الرجال المحمومين ذوي العيون البراقة. وعند الاستقلال، لم أرتكب حماقة العودة إلى قريتي الأصلية، إنني إذاً تتبعت أثر أولئك الذين، منذ البداية، كانوا يعرفون إلى أين هم ذاهبون، والذين كانوا جميعا يتوجهون نحو العاصمة. كنتم تحسبونني مت إذاً بينما كنت أتنقه في إقامة فاخرة في المدينة. لقد عشت إذاً بلا ندم. كنت طلبت سفارة، وفي انتظار تعييني كنت أتقاضى راتبا مقابل وظيفة كانت لها قيمة أقل من تطيراتكم التي تملأ عقولكم. مديرعام لما لم أعرفه أبدا. إن وزيري كان عرفني في الجبل و لم يكن يرغب في أن يعرفني أحسن. و لم تكن له يوما فكرة أن يعين لي مكتبا ولا أنا طلبته. وبالمقابل، لم أتوان في طلب سيارة الوظيفة التي كان لي الحق فيها. سوداء كلها ومبرقشة بقضيبيات مرصعة. كراسيها اللينة تستقبلني برقة امرأة عاشقة. السير بها ساعة في الريح والزجاجات كلها مترلة، بلا هدف ولا مسافة، تكفي أن تجازيني عن سنواتي الصعبة التي قضيتها في الجبال. مسئولي الوسخ: كان أرسل إلي السيارة مزودة بسائق خدمة. الرجل من قدماء أصحاب الجبل، هو أيضا، لم يكن يفهم لما ذا كان عليه أن يكون تحت تصرفي وليس العكس، ولما ذا كنت مديرا وكان هو موظفا في آخر تصنيف. كان

يقول لي إننا كنا أيضا جميعا أميين، الواحد منا مثل الآخر خرجنا من أرض مماثلة وذهبنا في السنة نفسها للقيام بالطلقة النارية في الجبال. "فألحّ. إذاً، هل تستطيع أن تشرح لي؟" ولأنه لم تكن لي الرغبة في جرجرة ذلك المتذمر الكبير فإنني حجزت عنه المفاتيح وأرسلته ليفلح بعيدا أحقاده وذكرياته.

"وهكذا، في انتظار سفارتي، طيلة أعوام عديدة، كنت أمضي صبحياتي نائما، وعشياتي أتصيد، ولياليَ أشرب وأزني. الله يغفر لي، فإنني جلبت إلى سريري أكثر مما هو عدد أشجار الزيتون في حقولكم. أنت لا تستطيع أن تتصور كم هن الفتيات المخدرات برائحة النفوذ. فإنهن يشكلن حشدا حول كل قوي. ففي كل استقبال يتزاحمن، الواحدة أكثر حسنا من الأخرى. أغلبهن يجذبهن الإسراف والرفاه، كأنهن يبغين أخذ ثأر من ماضي التقشف والحرمان المعتم والبعيد. ولكن الأكثر فسقا منهن أولئك الفاتنات اللائي دائما لا يبدين إحساسا إلا تجاه إشعاع أولئك المتأكدين من قوتهم، المتظاهرين بإخفائها. إنهن رائعات ومكيافيليات. إنهن يتقن الرسو على الشواطئ الأكثر عدائية، ومقارعة الحصون المشتهرة بمناعتها. إنهن ينتهين إلى أن يفتننك، كي يجعلنك في تبعية، قبل أن يقدنك من ردة إلى ردة ومن خيانة إلى خيانة، إلى نقطة التخلي الكلي حيث تكون ضحيت بالامتيازات وبالحظوة، بالمهنة، بالزوجة والأولاد، وبالشرف والكرامة، من غير أن تعدّ قناعاتك. أنا تتبعت هذا الطريق. إنه مأسوي ولكن لا يمكن مقاومته. أنت تعرفني جيدا: أنا لا أرى أبعد من عضوي الجنسي. فإنني في صغر عمري ارتبطت بسوزان الفظيعة، أنت تتذكر. ومع ذلك، كان لي مستقبل جميل. في أسوإ

حال كنت سأجد نفسي عقيدا بلا جيش، لا أقود شيئا باستثناء حراسي الذين ينتظرون أمام مكتبي من شروق الشمس إلى غروبها.

"خلاعتي دمرت مهنتي. الأمر الذي أدى بي إلى أن أجد نفسي اليوم في هذه القرية التي تنفّر الله. زيتونة مقر ولاية! إن هناك ما يضحك حد النتن.

" وكرر لي. لما ذا اختاروا زيتونة؟ أعتقد أني أستطيع أن أشرح لك حسابات دهاة العاصمة. بين مدينتين متساويتين في الأهمية ولكنهما منذ أمد الأزمان غريمتان لبعضهما، اختاروا ألا يحسموا. عوائد حلولنا الوسطى تريد دائما أن تقسم الأجاصة قسمين. إنهم، إذاً، بحثوا عن مكان متواجد على مسافة متساوية بين المدينتين المتنافستين. إنها زيتونة. قريتي الأصلية. قحبة الخراء! كم يثقل اسمي ملفاتهم، لقد كانت لهم فكرة عبقرية إذ سموني واليا. إنهم يضحكون اليوم جيدا، في برودة مكاتبهم المكيفة، ويتصورونني وأنا أنضح مائي كله في هذه الجهنمية.

"سأجرف كل البيوت التي في الأعلى والتي في الأسفل، كي أنصب مكانها عمارات عالية مستقيمة الأضلاع، ذات واجهات أكثر بياضا من الأجزاء الحميمة لنسائكم. وستسكنون الواحد فوق الآخر، وتدفعون كراء أغلى من بسمة طفلكم الأول.

كان ابن مسعود ينصت دون أن ينطق كلمة.

ـــ لي المتعة أن أعلمك، ما دامت زيتونة صارت لظروف ملزمة، بلدية كاملة، أني عينتك رئيسا لها بحكم السلطات المخولة لي. وها هو القرار، مخرجا ورقة من جيبه، تستطيع أن تذهب الآن لتعلن ذلك بالغايطة إلى من ستديرهم، وأن تغير الختم الذي تحمله معك في

جيبك، وأن تبدأ في بناء أحلام قوتك. إن الإمام لن يرفض لابنك فرج عذرائه. بالعكس، سيشرفه أن يتحالف مع أول أعيان القرية. لأن جماعتكم، بناء على هذا، صارت بالطبع منحلة أوتوماتيكيا. يجب أن تخبر أعضاء الجمعية الموقرة أن كل اجتماع أصبح غير شرعي. لن نسمح بتعايش مركزيْ قرار.

ـــ لكن من سيفض النزاعات بين السكان؟

ـــ أنت، وأنت وحدك. سيكون معك القانون والقوة العمومية. ونصائحي النبيهة. ولكن لا تنس أنني، في حكة قبُلي الأولى، أدفقك بقرار آخر. وبالمقابل، إذا كنت تحفظ دروسي فإنك، في الانتخابات القادمة، لن تكون في حاجة حتى إلى أن تتظاهر بأنك تقوم بحملة. ففي الإقليم البلدي كله سأوزع صناديق اقتراع عجيبة تخرج إلزاميا اسمك مهما تكن ورقة التصويت التي تزحلق. إن قرارك الأول بصفتك رئيس بلدية زيتونة سيكون حظر كل صناعة للزيتون في المقاطعة.

ـــ لا أفهم.

ـــ هذه الرحى لم يتم اكتسابها إلا بعرق جبين والدي الذي قضى صافي وجوده في قلب حقول الجيران لصالح جده. ورث الأقجع، في هدوء، المعصرة، التي كان من المفروض أن تؤول إلي بكل عدالة. إننا سننزله إلى البطالة.

ـــ ولكنه والدك المتبني.

ـــ بالضبط، لم أنس شيئا مما جعلني أعانيه. يبدو أنني لا أعرف أن أسامح. سأجعل ابن القحبة هذا يدفع جميع مخلفات العقوبات والمعاملات السيئة.

ـــ وكيف سنحصل على الزيت؟

ـــ سأمونكم بشاحنات كاملة من زيت السلجم الأكثر صفاء من رؤية الوادي السعيد، وشقراء أكثر من أي واحدة أشقر من الكثبان، مصنوعة في معامل أكثر رعبا من وحوش بحار تخاريفكم، والتي تأتيكم جاهزة للاستهلاك في دلاء من البلاستيك. صدقوني، لن تخسروا في البدل.

ثم، إن عمر المبروك، دائرا نحونا، أعلن بصوت مرتفع:

ـــ عندي خبر سار أعلنه لكم: ستلاقون قريبا الإخوة وأولاد الأعمام الذين غادروكم. سيكون ذلك فرحا كبيرا لكم، أعرف.

لا أحد منا كان فهم ما أراد قوله حتى الجمعة التالي، في نهاية صلاة منتصف النهار الكبرى.

وقعت بدءا زمجرة خرساء. رددتها وضخمتها الجبال المحيطة، كانت تبدو، مرعبة، آتية من كل الجهات. ذلك ذكرنا بأزمنة الحرب حيث كانت المقنبلات الألمانية تعبث في الأجواء بحثا عن القواعد الأمريكية. فرفعنا، إذاً، أنظارنا نحو السماء. ولكن ظهر من المنحدر شرطيان على دراجتيهما مشعلتين أنوارهما الغامزة متبوعتين بموكب ضخم من الشاحنات ذات العجلات الأكثر عددا من دودة اليسروع. اصطفت قرب شجرة اليوكلبتوس. السائقون كما الشرطة بدوا متعجلين، بل قلقين. كأنما كانوا خائفين من أطفالنا الذين بدأوا يحيطون بهم. تبادلوا بعض الإشارات الخاطفة بينهم ثم ارتفعت قلابات الشاحنات وهوى كل شيء أرضا. وكأنما أصابها الخجل، فإن الشاحنات دارت نصف دورة وفرت.

كانت الأسمال المسكينة مرمية أرضا معروضة بفحش

للنظرات الفضولية. أسرّة مشوهة، حزم من الملابس مغلفة في ملاءة، بعض الأواني من الألمنيوم، وشتات ملون من الأشياء البلاستيكية.

ثم ظهرت من بعد ذلك حافلتان تنقلان المنبوذين. كل واحد منهم كان يمسك بين ذراعية متاعه الأكثر هشاشة، بل الأكثر قيمة: جهاز راديو رحى قهوة، مصورة، طقم شاي، لوحة تحمل بعض الآيات القرآنية. لقد نزلوا ببطء. كان هناك التوأمان مزيان وآمزيان، ابن الحداد البكر ذو الفم المكبّر، وأصحاب شعر مشتعل، ومختار، الذي كانت له هيئة فخورة، منحنٍ، وأخو محمد، والرجل ذو ستة أصابع، وكل الذين كانوا يوما غادروا.

تقدموا نحونا منكسي الرؤوس، خجولين ونادمين كأنهم ارتكبوا الخطايا السبع الكبرى. وتوجهنا نحوهم بأذرع ممدودة، يتقدمنا إمامنا بقلب مقبوض. كانت هناك عناقات طويلة. ثم أعلن إليهم شيخنا.

ـــ أهلا بكم. أنتم أبناء قبيلتنا، أنتم هنا عند أنفسكم.

أُخوة استقبالنا أدهشتهم. لم يكونوا ينتظرون أبدا. رأينا مشاهد مؤثرة: فإنه ليس النساء ولا الأطفال وحدهم بل الرجال الأكثر فحولة كانوا بدأوا يبكون بلا حياء.

ـــ رفضونا في كل مكان، ولم نلاق في كل مكان سوى العداوة والنفور.

نظمنا وجبة كبرى على شرفهم، فأفقر واحد في القرية أصر على التضحية بمعزة.

وفي وقت الشاي قال لهم أكثرنا بلاغة:

ـــ ذاكرتنا احتفظت بكل لحظة من لحظات مغادرة كل

واحد منكم حياً، وقلوبنا لم تفتأ تعاني الفراغ من غيابكم. كنا نعلم أنكم لا تغادروننا بفرح في قلوبكم. كيف يمنع عن أولئك الذين فقدوا كل شيء أملا في مستقبل محتمل؟ قدر كل واحد منا مسجل في الكتاب العظيم. ولكننا، من دون أن نجرؤ على أن نقول لكم شيئا، كنا نحس أنكم كنتم هناك في مدن السهل، حتى ولو كنتم وجدتم اليسر، لا تتحملون مآسي أكبر. إننا لا نستطيع العيش سعداء خارج بلداننا.

قص علينا من كانوا أكثر تأثرا، وهم يجففون دموعهم.

ـــ اتهمونا بجميع الآفات. أكدوا لنا أننا كنا أعشاش جميع الأمراض التي تخرب المدن: الشوارع الضاجة، رفوف الدكاكين المفرغة، الميناء المخنوق، المستشفيات والسجون المكتظة، المدارس القليلة دائما، الحافلات المتعبة بتراكم المسافرين، الماء الأكثر ندرة مما هو في رمال الصحراء، البواليع التي تتقيأ في الشوارع، والجرذان التي تنتشر، والقطط التي صارت مكلوبة، والبعوض الذي صار لا يحس بالمبيدات. وشهدوا لنا أنه بسببنا رفض المطر أن يسقط أو يغرق الأرصفة، والشمس تقاطع خلف الجبال، وكف ثمن البترول عن الصعود، والعمال عن العمل، والكناسون عن الكنس. أهانونا بأفظع الأنواع. صباح مساء، ومساء صباح، يمر رجال شرطة متغطرسون ليراقبوا عددنا، وجنسنا، كأنه يُخشى، في الأثناء، أن نرفع من عدد هذا أو نبدل عدد ذاك. لقد طرد أبناؤنا من المدارس، ومرضانا من المستشفيات، وعمالنا من المصانع. وكانت سجلات المتزوجين تغلق في وجوه مولودينا الجدد وموتانا، وكانت الإدارات تتجاهلنا. تدريجيا، منعونا أن نغسل ملابسنا، وأن نطبخ، وأن نتمون بالماء، وأن

نقضي حاجاتنا، وأن نأخذ نساءنا، ثم أن نخرج في النهار. كنا نشعر بأنفسنا مطرودين من أمة الرسول. ثم كشفوا لنا أخير المرض الذي أصبنا به.

واستأنف منبوذون آخرون:

ـــ أكدوا لنا أننا مصابون بالجذام. فذهبا مجموعات إلى الحمامات حيث عرض كل واحد منا جسمه للآخر لفحصه. وبالرغم من تدقيقنا فإننا لم نعثر على أي قرحة. إن جلودنا كانت تبقى صافية كلية. ولأننا لم نقتنع بما أظهرت له عيوننا فإننا عرضنا أنفسنا على المداوين المشهورين، والأطباء الخبراء. لا هؤلاء ولا أولئك اكتشفوا لدينا أدنى إصابة. ثم أوكلنا حيرتنا إلى من أعلنوا إلينا مرضنا. "قالوا لنا. لا فائدة من إقلاق أنفسكم. إنه جذام خاص. إنه لا يُرى فقط ولكنه يستحيل أن يكتشف بالطرق التقليدية. ـــ ولكن على ما ذا يتأسس تشخيصكم؟ ـــ على اعتقادنا الراسخ. انظروا إلى واجهات العمارات التي تقابلكم. لقد أصابتها العدوى، ومرضكم يكاد ينتشر إلى المدينة كلها. إننا نفكر خاصة في تلك الأحياء المظللة كثيرا حيث يقيم أشخاص من ذوي الأرواح الرهيفة والأجسام الرقيقة. ولكن لا يجب أن تقلقوا، فإننا نمسك بزمام الأمور. وقد قررنا أن نجعلكم تستفيدون مجانا من العلاج الوقائي الأكثر تجريبا. ولكي تستعيدوا صحتكم فإنه يجب أن تتركوا جو المدن وأن تعودوا إلى الرؤوس السليمة في جبالكم الأصلية. إنها الطريق الوحيدة لخلاصكم. ثقوا فينا، فإننا هيأنا كل شيء." ثم، وفي تلك الجمعة، هجم رجال الشرطة بالأسلحة والألبسة الحربية على مدينتنا التي بنيناها من الصفيح، لاعبين على عنصر المفاجأة وسرعة المناورة كأنما

كانوا في معركة حقيقية. فقد أخرجونا بسرعة من أكواخنا، وأعادوا حسابنا مرة أخرى، وحملت أغراضنا في شاحنات كانت تنتظر، ثم تقدمت الجرافات التي في لحظة أهالت أكواخنا القصديرية والخشبية. وفي الصبح، اكتشف جيراننا، المقابلين لنا، ميدانا مسطحا. ورفعت نساؤهم رغردات فرح.

فأجابهم إمامنا.

ـــ نحن نؤمن بالله وبنبيه، ولكن قليلا بهذر حكامنا البعيدين. لقد تعودوا على الحكم بالكذب والرياء، ويعتقدون أنهم بذلك يخادعوننا، وما يخادعون إلا أنفسهم. لقد قدموا لنا خرافات كثيرة ولا هم يعرفون من أي جهة تشرق الشمس، أو يعرفون إن كانت أسماء أبنائهم حقيقية، ولا بأي لون هي السماء، ولا كم هي الساعة. لقد أخطأتم لما صدقتم أقوالهم. هنا، بين إخوانكم، ستجدون صحة عقولكم. ففي غيابكم كنا سهرنا على حفظ أراضيكم وأملاككم التي تركتموها، وعلى بناتكم اللائي أُعطين للزواج. ستقيمون تحت اليوكلبتوس، وابتداء من الغد سنعينكم على إعادة بناء بيوتكم التي تهدمت، وعلى فلح حقولكم التي تخليتم عنها.

العجزة من المجذومين بدوا أهلا لثقتنا وحاولوا التكيف مع عالم حياتهم الجديد. ولكننا اكتشفنا أن عقول مراهقيهم كانت تعهرت بشكل عميق. نسوا كل شيء عن عوائدنا وتقاليدنا، وكانت تصرفاتهم تصدمنا. كانوا يرفضون المشاركة في إعادة بناء بيوتهم، وأكثر من ذلك العمل في الأرض. كانوا يفضلون قضاء نهارهم ذهابا وإيابا ويستلذون بلا حياء ولا حشمة سماع الموسيقى العنيفة ذات الأصوات غير اللائقة. كنا دائما حذرين من المهووسين ومن الشعراء.

إنهم كسالى. يكرهون العمل وهم دائما على استعداد لأن يتركوا أنفسهم يتزلقون في المنحدرات الخطرة. نحن نثني دائما مراهقينا عن تلك النزعات لتوجيههم إلى ترتيل القرآن. ولكن بدا أن أبناء المجذومين استطابوا الأمر. كانت لهم تصرفات فاحشة. يدخنون أو يأكلون الشمة أمام الأب، وكانت لهم الجبهة كي يطلبوا منه الدراهم التي يصرفونها في أمور تافهة، ويدخلون أحواش البيوت دون أي كحة. وفهمنا في بعد أن استعراضهم للاتصال بعذاروانتا إنما كان القصد منه اللذة فقط، لأن أولئك المغرورين لم يكونوا يريدون الزواج. ولكن شاباتنا الشرسات، اللائي يعرفن جيدا المقلب، كن طردنهم إلى حنينهم.

ـــ أين هي الشوارع حيث كل شيء يباع ويشترى، وقاعات السينما ذات الملصقات الجذابة، ودكاكين الحلوى الوافرة، والحافلات المملوءة حيث يمكن الاحتكاك بأرداف أكثر طراوة من حبي الأول، تلك الحانات الباردة التي تضخ وتقدم البيرة التي تتدفق رغوتها، وكل أولئك البنات الجميلات اللائي يمررن ويمررن، ذاهبات إلى العمل، خارجات لقضاء مآربهن تنفصل الواحدة عن الأخرى وتضحك ملء حنجرتها، يبدون يزين مع الربيع واللائي، حين يأتي الصيف، يتعرين فوق الرمل الساخن قبل أن يذهبن يهبن صدورهن المؤلمة للضمة المائية. هنا، لا ترى سوى أشجار الزيتون الخنازيرية والماعز الهزيل. فما ذا نفعل هنا؟

وخلال أسابيع، كان كثير منهم اختفى. وهش الآباء أكتافهم لما سئلوا عنهم. إن لامبالاتهم الجاهلة حيرتنا.

ـــ إلى أين ذهبوا؟ هذا أمر لا يقلقكم؟

فأجابونا.

ـــ أولئك الأطفال تعساء. لا يجب أن نحكم عليهم بشدة.

كنا نعتقد عندما تغربنا أننا فعلنا ذلك من أجل مستقبلهم بينما كنا لا نفكر إلا في أنفسنا. لم نكن واعين. لم نكن نعلم ماذا كان ينتظرهم. إنهم ولدوا وكبروا في مدن القصدير، في مواجهة العمارات الضخمة التي كانت تتحداهم بارتفاعها، في الجانب الآخر من الشارع. خمسة أمتار صغيرة كانت تفصل بين العالمين. لم يستطع واحد منهم تجاوزها أبدا. وهم أطفال وعوا الاختلاف؛ وهم مراهقون لم يستطيعوا تحمل ذلك. فإنهم، حتى قبل أن يأتي من يخبرنا بمرضنا، كانوا يعرفون أنهم مصابون بذاك المرض المخترع غير المرئي الذي كان سببا في عودتنا. كانوا يعيشون في الغواية وفي الرغبات المقموعة. كانوا يحلمون ليلا، مسندين ظهورهم إلى الجدار، والنظر مرفوع بفحش نحو النافذة المضاءة التي تريهم أولئك الناس، الجنسين معا، في سنهم يرقصون، يأكلون، يشربون، يضحكون. إنهم كانوا يسجلون الأحاديث الجانبية، الأسرار، اللمسات الرقيقة، القبلات الهاربة. وفي النهار يحلمون بتلك المعاطف الجلدية وبتلك السروال الأجنبية التي لم تكن إمكاناتنا تسمح لهم بها. نعم، كانوا يريدون بباسطة أن يكونوا مثل الآخرين. إنها كانت طريقتهم في معالجة أنفسهم. إذاً، بدأ بعضهم في أخذ الصف أمام الأسواق الكبرى من أجل أن يشتروا ويعيدوا البيع في الشارع المواد ذات الندرة، وبعضهم نزل إلى الميناء ذي ألف تزوير من أجل شراء البضاعة المهربة وتسوقها. أحيانا كانت الشرطة تنزل لتنظف الشوارع من أولئك البائعين بالهربة. فقد كانوا يقضون أربعا وعشرين أو ثماني وأربعين ساعة في الحجز. وبمجرد أن يسرحوا

يعاودون. فيتم توجيههم إلى السجن حيث يقيمون علاقات مفيدة. وهكذا كانوا يختفون أكثر فأكثر غالبا، وأكثر فأكثر طويلا. لقد تعودنا. نعم، أولئك الأطفال تعساء فعلا، مقصون هناك، غير متكيفين هنا.

ولكن، في خلال بعض الوقت، كانوا يعودون إلينا، الحديد في أياديهم يصحبهم دركيون. ومن جديد يلتحقون بالمدينة، ومن جديد يعادون، إلى اليوم الذي نزل فيه عمر المبروك غاضبا.

ــ يجب أن تتعلموا كيف تقبضون على زمام صعاليككم الصغار. سبق أن شُرحت لكم الأخطار التي يعرضون لها أهل المدينة الأبرياء. إنهم أطفال قصر ولذلك فهم تحت الكفالة الأبوية. وأنتم مسئولون. إن والد كل منحرف سيرى نفسه من الآن فصاعدا معرضا لغرامة ثقيلة.

وقبل أن يذهب أضاف:

ــ هناك رجال سيقومون قريبا بزيارتكم. أتمنى أن تستقبلوهم بكل الاعتبارات التي تليق بمعاونيّ في المستقبل.

الفصل الثامن

وهكذا، وفي الأيام التي تلت، وقع اقتحام من بعض أصحاب السيارات. كانوا يوقفون سياراتهم، حذرين، بعيدا عن ساحة التين بمئات الأمتار. كان الزجاج المترَل أظهر هيئة مذهولة. وبسرعة رجعت السيارة واحتفت. تخيّلنا دهشة أولئك الكشافين الذين جاءوا يعاينون ظروف الإقامة في زيتونة. إن عمر البروك بذل كل حذقه الخطابي على أمل أن يقنعهم.

وقال لهم.

ـــ لا تخشوا شيئا. وثقوا فيّ، لأنني فكرت في كل شيء.

فقد وعدهم بأن يأتي، من أجلهم خاصة، مباشرة من كندا بلد النعيم، بفيللات ذات أسقف من الألمنيوم وجدران من الكرتون، ولكن مصنوعة بشكل جيد حيث يصبح الحديد أخف من نفَس آخر مولود لي، والخليط أشد قساوة من رؤوسنا. وأوضح لهم أنها ستكون

مجهزة بتلك الآلات التي تنفخ البرودة في الصيف والحرارة في الشتاء، بدون حسبان الأثاث ذي الخشب الكاذب، وهذه الصناديق التي تضحك وتبكي، التي كان يعرف أنهم صاروا شغوفين بها ككل تلك اللعب التي تملك بفحش أسس الحكمة والإيمان.

ـــ وأمام كل إقامة من إقاماتكم سأحفر لكم مسبحا بالعمق الذي ترغبون. فإنكم تستطيعون في نهاية كل يوم إغراق همومكم المهنية والعائلية، تتفرجون على أطفالكم يمرحون أو على فينوس طرية تشكركم عندما يجن الليل. كما سأضع، في تعاونية خاصة وبأسعار غير خاضعة للرسوم، تحت تصرف الهواة ماركات الويسكي والمشروبات الروحية النادرة، ومائة نوع من الأجبان التي لها شدة نهود عذراء تدرك البلوغ، والتي لها رخاوة الشفاه المرغوبة، والتي تذوب مثل قلبي عند ابتسامة مولوديّ الجديد. لن تعانوا هنا من الاختلاط مع القرويين. سأحيط منازلكم بسور عال محصن بشباك مكهرب. ومن جانب آخر، أنا مخول لأن أمنحكم مرتبات هائلة والتي تقتصدون منها النصيب الأكبر، وكل واحد منكم سيستفيد من مهمة إلى الخارج، في البلد الذي يختاره، مع التكفل ببطاقة الطائرة ومصاريف الإقامة. وتستطيعون أن تأتوا معكم بذوات العيون والبسمات والأجسام التي تشغل لياليكم، أو ببساطة، تتوجهون إلى السطو على دكاكين الوفرة ذات الأسعار الجيدة. ولأولادكم فإني أقيم مدرسة، جاءت من ذلك البلد البعيد نفسه، ستعمل بشكل جيد، ولأناقتها، فإنها ستبدو خشبة رسوم متحركة، محتوية على كل الضروريات، بمدرسات يتم شراؤهن مع الأثاث واللائي لشفافية خدودهن سيجعلن ذوي الشوارب في الجوار يحلمون.

لم نكن نعلم هل كان عمر المبروك توصل إلى إغراء مستمعيه. ومهما يكن، فإننا عرفنا أحيانا بعضا من الهدوء. فالوالي كان يمثل دور الميت، و لم يعد أصحاب السيارات يرجعون ليظهروا لنا سحنة ذهولهم، وكان أبناء المجذومين خففوا من مظاهر حنينهم الحزين. واعتقدنا أننا استعدنا رتابتنا وسكينتنا.

محمد وحده كان يعيش في الحيرة. وتردد كثيرا قبل أن يقرر إعلان منشوره الأول. ذات صباح، التحق خفية بمكتب علي ولد علي.

ـــ أنت الوحيد من يعرف لغة الرومي. ستحرر لي النص. ثم سأذهب لأرقنه عند الكاتب العمومي في سيدي بونمر.

ـــ أنا ضد هذا المشروع.

ـــ أنا لا أطلب رأيك ولكن عونك.

ـــ أخشى أن يعتقدوا أني شريك في دسائسكم.

ـــ لا تستطيع أن ترفض. ما أطلبه منك، بصفتي قاضيا، هو تسخير.

ـــ يا الله! أنت تتعلم بسرعة.

فإن محمد، الذي كان أُلزم بقرار ولائي سابق، كلف حارس الغابة بتنفيذ قراره. وللعلاقة الأبوية التي بينهما فإن رابح كان يسمح لنفسه بأن يتجاوز الكلفة مع رئيس البلدية.

ـــ أنت بصدد ارتكاب حماقة.

ـــ إنها مسألة تخصني.

ـــ في هذه الحال، ستقول له أنت بنفسك. أنت تعرف جيدا أنه صهري.

ـــ القانون واحد بالنسبة إلى الجميع. يجب أن تنفذه.

كان رابح، المحبط، أشعر عيسى عصّار الزيت بأمر التوقف عن نشاطه.

ـــ أعرف أن القرار جاء من ذلك الذي كبر بين أطفالي. هذا الرجل كلب مكلوب. يعض على كل من كان في متناوله. لا أنت ولا محمد تتسببان في شيء، أنا مقتنع. ولكنكم لن تستطيعوا أن تعايشوا بين المعزة وبين الكرنب. أنتم جاحدون، وستعيشون الظرف.

ودار عيسى ليتأمل ماكينته.

ـــ كنت أهيئها بالمناسبة لحملة الجني القادمة.

هز رأسه طويلا.

ـــ ما زال عندي احتياطي صغير من الزيت، هناك، في الركن. أنصحك بأن تحمل معك بعض الدلى. لا أريد أن يعاني أطفال أختي مما يترتب عن حماقاتكم.

وفي يوم من بين الأيام، وقبل صلاة الفجر، استيقظنا على هدير هائل حتى اعتقدنا أنه غضب السماء المفيد. ولكن، لما خرجنا، عاينا أنه لا غمامة تهدد عمائمنا التي كانت لما تزل منحلة. وللضجة التي وقعت، فكرنا في وصول موجة جديدة من المجذومين، عشر مرات أكثر من السابق.

ـــ هل قرروا تخليص المدن من الذين بلا عمل، والذين بلا مأوى، والذين بلا دورو؟ هل صاروا لا يتحملون رؤية البؤس، والوسخ، والانحلال؟ هل هم الذين يعانون؟ ولكن من سيجمع بعد ذلك الأوساخ المتراكمة، ويفتح المجاري القذرة، وينزل السلع من البواخر؟

أخطأنا، لم يكونوا هم المجذومين.

أكثر عددا من النجوم في السماء، أكثر جلبة من قطيع نوق غاضبة، نزل الأجانب عندنا من غير سابق إنذار. كانت الشاحنات، التي يقودها رجال صغار جدا، أكثر ضخامة عشر مرات من تلك التي نقلت المجذومين. فبعد معاناة صعود المنحدر، كانت تظهر الواحدة بعد الأخرى بأنف مرعب. كانت كل واحدة تحمل على ظهرها مسكنا مبنيا. ولأن الشاحنات العملاقة لم يكن لها ما يكفيها من الفضاء فإنها لم تتردد في احتلال حقولنا لتستقر فيها كأنها بلد مغزو. كانت تتقدم، تتأخر، تناور، تطلق أبواقها بدون تحفظ، غير مبالية بالاضطراب الذي تزرعه. كنا في ساحة التين، متجمهرين، ننتظر بصبر أن يأتي رئيس الأقزام يتمنى لنا السلام ويعطينا أسباب مجيئهم.

لم يحدث شيء. وفي الصبح، كان الغزاة جلسوا عند أقدام شاحناتهم وبدأوا يتغدون. ولاستيائنا من تصرفهم فإننا اتصلنا برئيس بلديتنا.

ــ من هم؟ من أين جاءوا؟ ما ذا يريدون؟

فأجاب.

ــ لا ينبغي أن نفقد أعصابنا. أقترح عليكم أن نتوجه قبل كل شيء إلى قهوتي لتحضير شاي ساخن. أنا الذي يعرضه عليكم.

وعندما أخذ كل كأسه الساخنة في يده ظهر الاتهام الأول:

ــ إنها مبادرة جديدة من عمر المبروك، وقد وقعت بالتأكيد في الخدعة.

أنكر العضو البلدي المحلي بقوة.

ــ إنه إذاً أمر واقع. ما ذا في نيتك أن تعمل؟

ــ يجب أن نفكر.

ــ لا يمكن أن نقبل رؤية هؤلاء الدخلاء يحتلون هكذا حقولنا. ذلك من غير أن نحسب ما أثارته تلك الوحوش الحديدية من رعب عند حيواناتنا. اسمعوا صياح معزاتنا.

ــ سيحضر الوالي بالتأكيد ليقدم لنا الشروح المفيدة. يجب أن ننتظره.

ــ وإذا لم يظهر؟

ــ هو السلطة الأولى، ليس فقط في زيتونة، ولكن في كل القرى المحيطة وفي كل الإقليم. يجب علينا احترام وظيفته.

ــ أنا أقول لكم إننا لن نرى شاربه. يجب أن يكون أقل افتخارا بدسيسته، وأقل من ذلك تعجلا على المجيء ليواجه عضبنا الشرعي.

في الأخير صففنا أنفسنا على رأي رئيس البلدية. ولكن الشمس كانت تغيب و لم يكن واحد من أطفالنا الذين راحوا يرقبون السيارة السوداء قد عاد. كان الأجانب، غير مبالين بوجودنا تماما، يواصلون حركتهم بين الشاحنات.

عاين الملاحظون.

ــ إنه ليس في نيتهم الذهاب.

فتساءل الذين لا يملكون صبرا.

ــ إذاً؟

وقال لنا محمد، بعد أن دعي، بريبة عابسة.

ــ سأطلب من حارس الغابة الاتصال بهم.

ـــ أنت تعلم أن رابح برغم بزته يبقى رجلا وجلا. إنه سيهرب لطلقة صوت البوق الأولى.

ـــ وإلا ما العمل؟

ـــ أنت ممثلنا، وأنت رئيس بلديتنا. يجب أن تذهب لتكلمهم.

ـــ ولكنني لا أعرف لغتهم. ولد علي هو الوحيد من دخل مدرسة الروامة.

وتدخل جورجو قاطعا:

ـــ هؤلاء الناس لا يتكلمون لغة الفرنسيين ولا لغة الألمان. هم يستعملون لهجة أكثر غرابة.

فطلب رئيس البلدية.

ـــ هل يوجد هنا من يعرف لغة الأجانب.

سؤال بلا فائدة. كان محمد يعرف جيدا أننا نحيا في لغتنا كسد منيع و لم نكلف أنفسنا حتى تعلم لغة الروامة الذين بقوا عندنا طويلا، ولا حتى جورجو الذي بقي، مع ذلك، عندهم طويلا، كما أننا لم نعترف أبدا بأننا نجهل لغة رجال البرد، والذين مع ذلك يستعلمون أفعال القرآن.

فقال رئيس البلدية.

ـــ ما ذا تقترحون؟

إنهم هم الذين جاءوا إلى هنا، فعليهم أن يستعملوا هم لغة البلد.

ـــ هل تعتقدون؟ ومع ذلك فإن لساننا مشهور بأنه غني وأريب حتى إن الأجانب يظهرون عاجزين عن إتقانه. لذلك نحن

نقدر شعراءنا القدامى. إن أولئك الأجانب لا يستطيعون حتى تقليد صوت من أصواته.

ـــ نحن نعلم أنهم وُهبوا فضولا شرهاً وهم حاذقون في دراسة كل شيء من أشياء هذا العالم وحتى تلك التي لا تعنيهم. إنهم بلا شك يتوفرون على ترجمان.

تقدم الإمام، الذي بقي صامتا، نحو الضابط البلدي. فسكتنا.

ـــ كان أجدادك مهجرين وقبيلتنا هي التي استقبلتهم ورامتهم ضمنها. وصاروا بسرعة منا. وأنت تعلم أننا لم نتردد يوما في إعطائكم عذراواتنا. والدليل هو أن ابنك سيتحد بصغرى بناتي. سلوك آبائك لم يحملنا أبدا على أن نندم على هذا القرار. واليوم وقد أصبحت رئيس إدارتنا فإنه يجب عليك أن تظهر أنك أهل للثقة التي وضعناها في عائلتك.

جر محمد ابن الحداد البكر إلى ركن ليتحدث معه بصوت منخفض.

ـــ هل رأيتهم عن قرب، أولئك الأجانب؟

ـــ كنت معلقا على يوكلبتوس.

ـــ هل هم فعلا صغار كما يقال؟

ـــ إن أصغر عجلة من عجلات شاحناتهم تساوي قامتهم مرتين، وإنه يمكن إسكان مائة من هؤلاء الأقزام في بيت واحد من البيوت التي ينقلونها.

تنهد محمد وعاد نحونا.

وأعلن.

ـــ جيد، سأذهب لأراهم. سيرافقني حارس الغابة، الذي هو

ممثل القوة العمومية، عقب قيامنا بأداء واجبنا الديني. لا ندري ما ذا يقع. يمكن أن يكون ضروريا استعمال الإكراه.

هز الإمام رأسه هزا وتبعناه إلى قاعة الصلاة. وبانتهاء القداس عاد قاضينا إلى بيته ولبس برنوس الوظيفة. ثم مر على الحلاق لتقليم شارب مهم قبل أن ينتزع بندقيته القديمة التي ورثها من جد جده. وبقي طويلا يسرج بغلته. ثم، وقد قفز على السرج، خطب في المدوَّرين إداريا:

ــ في الماضي، ولعدة مرات، نفخوا علينا رياح العداوة القاسية. عرفنا إذاً جراحات الواقع وليالي الحيرة الطويلة. ولكننا نجونا دائما. واليوم، من جديد، سنواجه. لن أعود، واعلموا أني أوكل بناتي إلى أكرمكم، وإلى أكثركم حكمة تسيير مجموعتنا. كما أذكركم أنكم جميعا شهداء على أن الإمام وافق على إعطاء ابني آخر عذراواته.

قال، ثم، بعد سلام نبيل، بدأ يتقدم.

والتفت قائلا لحارس الغابة:

ــ لا تتبعني إلا على مسافة. إن ذلك يمكن أن يكون خطيرا.

الفصل التاسع

ترقب السكان، محتشدين في ساحة التين، عودة المبعوثين. وأصابتنا الدهشة لما رأيناهم راجعين بخطى ثقيلة، خافضين رؤوسهم، منزوعي السلاح، يجرون البغلة من رسنها منزوعة البردعة.

بدأنا نرتجف ونذكر قوة الله، لأن ذاكرتنا الجماعية احتفظت بذكريات قصص الأزمنة القديمة، عندما كان آباؤنا يجدون أنفسهم مكرهين على دفع ثمن الزمن المبذر. إن التاريخ حقود، كما كان الملازم أول صاحب الشارب المعقوف، الذي كان يقود رتل الجنود ذوي القبعات، أمر من أعلى حصانه، بعَدّ الذكور الذين هم في عمر القتال (خمسة في عينيه)، وبحجز كمية من فحول الخيل، والبنادق كلها، والمخزون من البارود ومن الرصاص، وبدفع جزية حرب من الحبوب ومن الأنعام ومن الذهب ومن الفضة، خلال الشهر، محسوبة بالنسبة إلى عدد المحاربين في القبيلة.

هكذا تلاشى احتياطهم من الزرع وتشتت مواشيهم. وعلموا أن أراضي الوادي السعيد صودرت، وأن عليهم أن يتنازلوا عن النصف من تلك التي احتلوها بصفة غير قانونية، لأنها كانت صارت، منذ توقيع الاستسلام، ملكية للإمبراطورية. عِدادة مهندس المسح هي التي حددت موضع تعسْكرهم والثمن الذي يدفعونه من الحبوب ومن الذهب والفضة. ثم أعلن إليهم الحاكَمْ أن كل انتقال ممنوع عليهم وأنهم سيكونون مسئولين جماعيا وجماعيا سيعاقبون عند حدوث أي اضطرابات في المنطقة. وأخرج ورقة من جيبه وقرأ عليهم القرار الذي يعين رؤساء القبائل الرئيسيين في وظيفة القايد في الأماكن النائية والتي لا يعرفونها هم. وهكذا هاجر عمر بن حسن، نبيل كل النبلاء، ومبروك بن طفيل، الابن البكر للولي المؤسس، وأحمد الريحاني رئيس أقوى صف في القبيلة، وآخرون كثيرون. وأعلمهم الضابط، أخيرا، أن قادة القوم جميعا صاروا تحت الحجز إلى إشعار آخر وأنهم ملزمون بالمجيء إليه ليقادوا إلى الثكنة العسكرية.

ورووا لنا أن ابن عبد الملك تقدم إذاً.

كان أبسل البواسل وأدهى الدهاة، هو الأول دائما في الكر والأخير في الفر. كان برنوسه الأحمر يخفق في الريح. قيل إن حسامه، الذي قطع به رقابا كافرة كثيرة، ورثه من الذي لا يُهزم، عليّ رفيق الرسول.

لم يستطع الترجمان أن لا يقوم بحركة تراجع لما رآه يتقدم.

وتوجه ابن عبد الملك، رافعا صدره، إلى الفارس:

ــ نحن هنا في بلد آبائنا وآباء آبائنا الذين عاشوا هنا قبل الرسالة وقبل مجيء الروامة. لقد نهضنا دائما لمقاتلة الغزاة من حيثما

جاءوا. وغالبا ما طردناهم، واستطاعوا أحيانا السيطرة علينا. وحتى في انتصاراتنا، فإننا لم نمس أبدا بكرامة خصومنا، وفي هزائمنا، لم نعان أبدا من أي نقص في الاعتبار. ولدت محاربا كي أقاوم، وجيوشكم تعرف جيدا أن سيفي البتار أقوى ضربة من مائة من بنادقكم القديمة. إن صفوفنا أبيدت بفضل تلك البنادق التي لا تحتاج إلى إعادة تعبئة، وليس لشجاعتكم. إن المجد لا يعود إلى جيوشكم ولكن إلى مخترعيكم. واليوم، وأنا مهزوم، أقبل الموت الذي يخلص، وليس السجن الذي يهين. إذا كنتم ترفضون قتلي حينا فإني سأشهر سيفي وأهجم عليكم، وفي رمشة عين أكون قطعت عشرة من الرقاب.

لقد قتلوه.

لكننا كنا نعلم أن تلك الأزمنة وطرائقها تولت، وأن الغزاة كانوا يضعون في مخازن بواخرهم مدافعهم الفتاكة ودباباتهم العنيدة وطائراتهم التي لا تهزم، وأنهم، من بعد ذلك، صاروا يكتفون بإغراق مدن بلدنا في هدوء بالأجهزة التي تعيد إحياء الصوت والأشكال بالرغم من تحريم الرسول ذلك، والتي تفتك بعقول الذين تستهويهم.

لم نعلم إذاً لما ذا كانوا أهانوا مبعوثنا الذي مع ذلك عاد إلينا باسما.

فبعد أن أبعد مجموعة الأطفال الذين كانوا يضايقونه، كان السكان الكهول الذكور، وراء زعيمهم، أخذوا أماكنهم على الحصائر التي وضعها ابن محمد البكر بكل عناية، وبعد أن قدم الشاي، بدأ مبعوثنا يروي لنا بالتفاصيل مواجهته مع الأجانب.

قال لهم من على بغلته لما وصل قريبا منهم:

ــ رئيس الأهالي يريد أن يتكلم مع رئيس الأجانب. إذا كنتم متعودين على العيش كبرابرة، بلا رئيس ولا إيمان، فإنه عليكم أن تعينوا أفضلكم شرفا ونبلا. وأوضحوا له أن يأتي بوجه مكشوف.

طلب منه ابن الحداد البكر:

ــ هل جاءوا من بلاد الأقزام؟

ــ على كل، عندما يترلون من ماكيناهم فإنهم يستعيدون أبعادهم الطبيعية. خرافاتنا كثيرا ما عاينت ظواهر مماثلة.

كان للأجانب، فعلا، ترجمان ولكنه لا يتكلم سوى لغة القرآن، التي بلا شك تعلمها من كتب أكثر صرامة من الجمل التي ينطق بها. ولم يصدقوا أننا لا نستعمل لغة أخرى. وفي لحظة، أغرت محمد فكرة أن ينادي ابن الحداد البكر، الذي حفظ جميع الآيات التي يعرفها الإمام وأراد، بعد أن ظهر ذلك المدرس الطائش، أن يذهب إلى سيدي بونمر إلى المدرسة الفرنسية ليهرئ سرواله على مقعده ويستنفد مدخرات أبيه. ولكن الطفل أظهر حذقا في استعمال المقلاع أكثر مما أظهره في اللغة المقدسة.كان يحرق دروسه ويكسر الزجاج. ثم طرد.

قدر رئيس بلديتنا في النهاية أن اجتماعات خلية الحزب الطويلة علمته استعمالات لغة أهل البرد.

ذلك يعني أن الحديث بدا كاداً ومحشوا بالالتباسات والغرائب.

ــ لن نتعلم كيف نحب الأجانب. إن الشر لا يأتي دائما إلا منهم. ما ذا جئتم تفعلون هنا؟

أظهروا له ملفا سميكا.

ــ هذا.

ــ أنا لا أفهم. أحذركم أننا لن نسكت. وعند الحاجة فإننا ندفع بأحد أطفال القرية ليتدخل، فإنه عمل طويلا حيث البرد وصار منذ وقت قريب ليس رئيس هذه القرية فقط ولكن كل البلد الذي يحيط بها إلى أبعد مما يصله نظركم، ليتدخل. إنه كبير، قوي جدا، ويجب أن تخشوا غضبه.

ــ نحن كذلك نأتي من بلد البرد.

ــ كيف هذا؟

ــ نعم، فخلال ستة أشهر تغمر الثلوج العالية والبيضاء الأرض؛ ففي البرد، تتجمد الآذان، ويرشح الأنف، وتتفجر الوجنات، وتدمع العيون.

ــ أنا أقصد تلك البلدان التي فيها البرد برغم حرارة الشمس.

ــ إننا لا نفهم.

ــ هل يجب أن يوصف لكم ذلك المقام الأكثر رفعة في حي مدينة المدائن، في قمة أعلى البنايات، حيث يعيش رجال أقوياء يكفي عقد حاجبين خفيف منهم لإحداث زلزال في البلد كله، ولشدته فإنه ينكد أشعة الشمس التي تخشى أن تعتم شفافية وجناهم. وهكذا فإن وجوههم ليس لها سوى شحوب موتى السلطة. عمر المبروك هو واحد من هؤلاء.

ــ إنه هو بالضبط الذي أمضينا معه هذا العقد.

ــ معه؟

ــ بالضبط. ولأننا سددنا جميع العمولات الضرورية، نتمنى

أن نشرع بسرعة في العمل.

ـــ شاحناتكم احتلت حقولنا، وأرعبت دوابنا، وأقضّت نوم طيور أشجار يوكلبتوسنا وزعزعت أكواخ مجذومينا التي بنيت حديثا.

ـــ الرجال كما الحيوانات يجب أن يخلوا الأمكنة لنمكن شاحناتنا من وضع أحمالها. ولكن قرب أولئك المرضى يقلقنا. ذلك لم يكن مسجلا في العقد.

أكد لنا محمد بعد أن شرب جغمة من كأسه أنه أعلن إليهم:

ـــ لا تخافوا، إننا احتفظنا بأمراضنا لأنفسنا، ونحن نخفي سريا جراحاتنا العميقة. على كل، فإن أولئك الناس المساكين ليسوا مصابين سوى بوهم بصري أحدثه فضول المصورين الأجانب المعتمدين في العاصمة بلا اعتبار. إنهم لا يتألمون إلا من كرامتهم وسيشفون مع نهاية التعمية.

ـــ احتياطيا، سنلقح مستخدمينا. لا بد من ملحق بالعقد حتى يؤخذ في الحسبان هذا المصروف الزائد.

ولأن الناطق باسمنا انزعج فإنه شرح أنه لا يمكن لنا أن نرفض اللجوء لأولئك الرجال، الذين عفر شرفهم، ولا تعاطفنا الأخوي فإنهم جاءوا ليخفوا، تحت ظل أشجارنا الكبيرة الرحيمة، هذه القروح التي قيل إنها ناقلة والتي، برغم كل الفحوص، لم يستطيعوا أن يكتشفوها. فبمجرد أن وصلوا عندنا، وتبرئة لذممهم، غطسوا في حمامات نقعت مياهها بأوراق اليوكلبتوس ذات الفضائل المطهرة المعروفة. وأضاف ترجماننا أن حكمتنا الجماعية كانت تدرك قساوة الغربة.

ــ قبيلتنا كانت ترى، بقلب كبير، أبناءها يذهبون. كان هناك أولئك الذين هاجروا نحو بلاد الإسلام، لرفضهم العيش تحت نير الكافر، والذين نزلوا من الجبال منتصرين معتقدين أنهم سيعودون إلى وادي الداليا والعنادل، والذين اجتازوا البحر، مدفوعين بالجوع، ليلتحقوا بمدن السهل، في ما وراء النهر الكبير وفي ما وراء السكة الحديدية. وكنا دائما نأمل في عودتهم من الغربة أغنياء متغطرسين أو مريرين منكودي حظ.

بعد استراحة، أضاف الخطيب:

ــ يجب أن تنسوا قروحهم المتخيلة وأن تدخلوا مدرسة عمانا المتسامح. ما دام أن أحد أبناء هذه القرية أعطاكم كلمة، فإننا نستقبلكم كإخوان إذا كنتم تعرفون كيف تكونون أهلا لثقتنا. ونحن لا ننصحكم بأن تعيشوا داخل مجموعة كما هي عادتكم أن تفعلوا. وعليه، بصفتي رئيس بلدية يجب أن أعلمكم أنه ممنوع عليكم أكل القطط والكلاب الضالة في المنظقة، مثلما يظهر أنكم تعودتم على ذلك. إننا لن نقبل تلك الممارسات البربرية.

إنه كان الخطاب الذي زعم مفاوضنا إلقاءه عليهم. إن بيان كلامه ونبله حمّسنا برغم محاولات حارس الغابة المتكررة للتصحيح. ولكن حركات انزعاجنا أفهمت هذا الأخير أن الانسجام الفني للقصة يمكنه أن يتآلف مع بعض الالتواءات، ومن غير أن نكون حمقى فإننا نفضل تنميق الخيال وتزويقه على عري الواقعي وبساطته.

طرح أخيرا السؤال الذي يحيرنا:

ــ لكن لما ذا صادروا بندقيتك وسرجك.

فرمانا قهواجينا ببسمة عريضة.

ـــ أعرف ما ذا كنتم خشيتم.

أسر إلينا إذاً أن رئيس الأجانب، طول المحادثة، لم يتوقف عن تركيز عينيه على البندقية التي كانت موضوعة على ركبتيه. إلى حد أن بطلنا اعتقد ضروريا أن يطمئن محاوره.

ـــ لا تخف، لن نرميكم بالرصاص ولن نقطع رؤوسكم الصهباء الجميلة. الهزيمة المتجذرة تجبرنا على أن نضع على شعاع من الحنين عدوانيتنا الباطلة. بلدنا باستعادة سيادته اعتقد أنه من الضروري التفتح على العالم. وبدأ التعامل مع رجال أكثر شحوبا منكم والذين يرفعون عاليا مبالغ ربحهم أكثر مما يرفعون شرفهم. كانوا يبادلوننا قمحنا الجميل بأجهزة شريرة مصنوعة من المعدن المؤكْرم ومن المعرفة المتغطرسة ومن عرق الكادحين. اختبرنا فعاليتكم، ونحن نرثي هشاشتنا. نحن نستقبلكم بمرارة الوعي بأنكم ستستغلون ضيافتنا لتعهروا عالمنا. ومن مهمل قيمنا ستجنون أرباحا، وستملأون جيوبكم دولارات، متفهين حياءنا. ولكنكم أنتم أنفسكم، المنتصرون اليوم بشكل صارخ، من أجل أن تجدوا أرواحكم يجب أن تعودوا إلى الوراء إلى طريق الإنسانية السخية التي تركتنا بلا سلاح. من هزائمنا ومن تخلينا أنشأنا أخلاقا ساعدتنا على أن نعيش أعلى من رفاهكم.

لكن نظرة الأجنبي الشهوانية بقيت مسلطة على الأخمص الصدفي المنقوش لبندقية محمد التي ورثها.

ـــ بما أنه أظهر برودة إحساس تجاه جمال خطبتي فإنني، بعد مساومة طويلة، أعطيته البندقية الرديئة مقابل مذياع يلتقط، لقوته، أصوات بلدان أبعد من ذلك الذي يأتون منه. وبادلت سرج الجلد

المطرز بالفضة بجهاز قهوة من آخر صرخة سأتسلمه قبل ستة أشهر.
حظ غير متوقع، أليس كذلك؟

الفصل العاشر

دعا عمر المبروك، إلى حفل وضع حجر الأساس، شخصية سامية لعلوها لم تستطع قدماها أن تبلغ الأرض. كان يجب إذاً نشر بساط سميك من أجل أن يقبل أن تغامر خطواته. وأياما قبل الزيارة، شوهد الوالي يصل باكرا كل صباح، يكد بلا توقف، أكثر توترا من عتروس متحمس. وكان مصحوبا بأشخاص، للأهمية التي يبدونها ولجديتهم، حسبناهم يحملون ثقل السماء على أكتافهم. وأمام سحناتهم الصارمة أو المتشككة كان عمر المبروك يعد، يؤكد ويطمئن.

كنا نلاحظ ذلك التشوش من مكاننا في ساحة التين من غير أن نتدخل، إلا عندما يتعلق الأمر بنقل المحامي القديم. ذاك المتمسك بالدفاع عن كل القضايا الخاسرة نفي مرتين إلى جهتنا.

المرة الأولى، وكان ذلك منذ زمن (في تلك الأزمنة المضطربة

خلال الحرب)، نزل من سيارة درك كي يوضع تحت مسئولية ضابط الفرقة الإدارية المتخصصة (لاصاص) الذي جاء يقيم عندنا. وأخذتنا الهشة لرؤيتنا الملازم أول، الذي كان يظهر لنا التعالي والاحتقار، يعامل باحترام مهجن بالخوف ذلك الرجل النحيف المرتبك الحركات المترعج الجسم، لعدم وثوقه من رجليه فإن هشة من طفل تسقطه. وتساءلنا طويلا عما ذا يمكن لرجل مديني هزيل أن يفعله عندنا. كنا نلاحظه من بعيد حذرين معلقين على حركاته وأفعاله. أُسكِن في الفيللا نفسها التي حجزها الضابط وأكل على طاولتها. كنا سنحسبه واحدا من أولئك الأجانب الروامة، نصف مهابيل، نصف علماء والذين يأتون أحيانا يقضون بعض الأسابيع يلاحظوننا كيف نعيش. ولكن الرجل لم يكن يخطو خطوة إلا على روح الضابط المعذبة، وكان الحرْكي رأس البصلة، صاحب الضحكة السادية الأبله، هو الذي يشق له الطريق. كان يأتي كل صباح يتناول شايه في قهوة محمد. كان يتروي في ركن يتذوق شرابه صامتا ومتحفظا متجاهلا هرج حارسه الأصلع. وكان يرى يقوم صحبة الضابط بفسحات طويلة. في صباح العيد، وفي وقت الصلاة، كنا ندهش لرؤيته قادما وحده ثم يصطف بيننا. وفي نهاية القداس، يدعوه الإمام إلى مقاسمتنا الوجبة. كان يقبل بمتعة. بعد الكسكس، وفي وقت الشاي، يسود الصمت. إن الكياسة تمنع أن يُسأل الضيف. ولكن هذا الأخير اكتشف الفضول الذي كان يبرق نظراتنا المترقبة.

ـــ أنتم تسألون أنفسكم عن سبب وجودي في هذه القرية. السلطات الاستعمارية فرضت عليّ الإقامة الجبرية.

ولأننا لم نكن نفهم، فقد شرح لنا أنه نصف مسجون.

ركزناه، فتفاجأنا نحن الذين كنا نعتقد أن الأبله المزّاح كان في حمايته وليس في حراسته.

ـــ الروامة الذين صاروا من القوة بحيث لا يخشون حتى الله يخافون منك؟

عندما بدأ يتكلم فاجأنا بإتقانه لغتنا. ولكننا اكتشفنا خاصة الولع الذي يحرك جسم ذلك الرجل النحيل والخطر الذي يمثله كل من كلامه الواثق ويقينه الهادي. وفكرنا حينها في نبوءة المشعوذ.

في العادة، لا يبدي المراهقون اهتماما بالمناقشات، فإنهم يغادرون الساحة على آخر لقمة يبتلعونها، في ذلك اليوم بقوا.

سأله رجل شاب.

ـــ لما ذا تأخرت كثيرا في المجيء إلينا؟

ـــ لم يكن مسموحا لي بذلك. اليوم، وبمناسبة العيد، حظيت بتسريح خاص.

ثم من بعد ذلك طلب المنفي أن يزور مقام ولينا. وبهره أنه اكتشف المكتبة. وطلب أن يسمح له بتصفح الكتب.

فأجابه الإمام.

ـــ كتب السمسرة والفضول المدنس هذه ممنوعة.

فأكد لنا الضيف أنه حان الوقت من أجل استعادة الذاكرة مع الطموح إلى المستقبل. وبالرغم من أن الأمام لم يكن مقتنعا فقد قدم له المفاتيح. وتحصل من ضابط (لاصاص) على ساعتين من الحرية في اليوم يقضيهما في المقام. بعض المراهقين كانوا يلتحقون به خلسة وكانت جلسة القراءة تتحول بسرعة إلى خطب سياسية. إن ذلك لم يكن ليسلينا ولكن لا أحد منا تجرأ على التدخل.

إن المراهقين، وهم يتنفسون بنهم غبار الكتب المبعثرة، كانوا يحاصرون المنفي بأسئلتهم.

ـــ هل تعتقد أننا سنعود يوما إلى وادي النبات العطر واليمام؟

كان الرجل الصغير، بلا تعب، يشرح، يفصل، يجسد، يعلم، ينمي، يلح، يعيد. وفي نهاية تلك المناقشات كان مستمعوه يعودون إلينا وكأنهم أضيئوا من داخلهم.

عمر المبروك كان من هؤلاء.

بعد أسابيع كان كثير منهم اختفى ليلا. وعندما علم الضابط ذلك أخذه الغضب. وحرم على المحامي الحق في الاقتراب منا وحتى إلقاء السلام علينا.

نعم، الآن سأحكي لك ما حدث لوردية، أخت عمر المبروك هذه التي بدا أنه نسيها تماما. يجب أن أقول لك إن ذكريات تلك الأحداث لا تزال توقظ فيّ أوجاعا شديدة.

فبعد ذهاب مجموعات المراهقين إلى الجبل كنا رأينا رأس البصلة وصل إلى ساحة التين يوزع ضحكاته. كان مصحوبا باثنين من الزبانية مسلحين بالبنادق. إن المهمة التي كلفه بها الملازم أول كانت قمة ابتهاجه. وأمر بفرح مأموريه بأن يذهبا ليخرجا، من أي مكان كان، الرجال المبحوث عنهم والإتيان بهم إلى الساحة بالبنادق في كِلاهم. وبعد حين كانوا جُمعوا قريبا من الساحة حيث كنا. عاينا أن المعنيين كانوا آباء وإخواناً لمن التحقوا برجال الليل. وأعلن رأس البصلة، بعد تأمل طويل، بين ضحكتين:

ـــ ينقص اثنان.

التفت نحونا، معينا بلا حياء بسبابته عضوين من الحضور:

ــ أنت، وأنت. قيام. هيا اصطفوا إلى جانب رفاقكم.

أوكلت المجموعة إلى الحركِيَيْن اللذين قادوها إلى ملحقة (لاصاص). ولكن الرقيب بقي ثابتا مواصلا تنكيدنا. إن التعبير عن فرحه كان يهز فيه كرشه البارزة.

قال لنا في هروب.

ــ هناك شخص آخر يجب أن أحضره.

ولانا ظهره كي يختفي في زقاق. رجع بعد لحظات يجر وردية من ذراعها، كانت تتعارك مثل عفريتة بينما زوجة عيسى كانت تضرب ذلك الشرس اللامبالي وتسبه.

شعورا منهم بالنقمة فإن الحضور قاموا وبدأوا في الإحاطة بالفاسق.

ــ ابن الكلب، خل البنت في حالها.

لكن الرجل، من دون أن يطلق ذراع وردية، أخرج مسدسه من غمده.

ــ اهدأوا فأنا لا أنفذ سوى أوامر الملازم أول.

وهددت الفوهة من كانوا لا يزالون يتقدمون.

ــ أنتم تتجرأون الآن على المساس بالنساء؟ على أي خبث أنتم ما زلتم قادرين.

ــ كفوا عن التخوف. الضابط لا يريد سوى أن يطرح عليها بعض الأسئلة تخص أخاها.

بدأ رأس البصلة في الارتباك لما حوصر تماما. ولم يعد مسدسه المشهر يخوّف أحدا.

ـــ أطلق هذه البنت وعد إلى سيدك، هذا أفضل لك.

ـــ كونوا عاقلين. إن حاولتم اعتراض أوامر الملازم أول فإنه سيطبخكم، تعرفون هذا.

بجبذة مفاجئة حررت وردية معصمعها من الطوق الذي كان يكبلها.

ورمت باحتقار إلى الحارس.

ـــ أمنعك أن تضع علي يدك الوسخة.

ابتعدت عن المرتد وقالت لنا:

ـــ سأذهب لأرى ذلك الرومي. لست خائفة منه.

في هذا الوقت كانت امرأة عيسى اختفت لتعود راكضة تمد ملحفة إلى وردية.

ـــ هاكي، غطي روحك.

لكن البنت ردت بيد متعالية ما عرض عيلها.

ـــ الملازم أول هذا لا ينتمي لأمة الرسول. إنه إذاً ليس رجلا، ولست في حاجة إلى أن أخفي عنه جسمي.

وتقدمت سافرة تحت الشمس أكثر غطرسة من أشعتها أكثر إشراقا من ضوئها.

لم نعلم أبدا بتفاصيل ما جرى في ملحقة (لاصاص). إن الرجال الموقوفين استُجوبوا طويلا، وأحيانا عُذبوا، ثم عادوا في صمت الواحد بعد الآخر ليستأنفوا انشغالاتهم العادية. كانوا جميعا أبدوا اشمئزازهم مما حصل لهم في توقيفاتهم. ولكننا كنا ننتظر دائما عودة وردية. وكان عيسى الأقجع، بمجرد الإفراج عنه، لقلقه عليها، ذهب مرات ليدخل على الضابط ليعرف مصيرها. ولكنه لم يُستقبل.

وكان حارس الفيللا يرده بخشونة في كل زيارة. فلم يستطع أن يرى ابنته التي رباها.

بعد شهرين من ذلك، دعي جرجو إلى (لاصاص). كان رأس البصلة اتهمه بتزويد أصحاب الجبل بالمئونة وبالأحذية.

حرص الملازم أول، برغم شكه، على أن يسمع الحوانيتي على كل حال. وأعلن له جورجو:

ـــ لا تنسوا أني قاتلت الألمان لحسابكم. قضيت سنتين من حياتي مدفونا في الخنادق أترصد أعداءكم. وعند إمضاء الهدنة تم التخلي عني في مدينة لا أعرف حتى اسمها. ولكي أتعيش كان علي أن أعْتل خراسنة أثقل من حنيننا إلى الوادي السعيد. أضعت اسمي لأن جورجو هو كنية من كان كلفني بالنقالة. وفقدت أيضا ذاكرتي ذات الجذور التي يمكن أن تغذي نسغ ذاتنا المغربة. تتلاشى تذكارات شبابي وتتحلل وجوه آبائي وأصدقائي. وأملا في إحيائها كنت أذهب كل مساء أغرق في الشراب الأخضر نصف راتبي اليومي. ومن العيش هناك كنت انتهيت إلى أنني تعودت على أن لا أرى الشمس خلال الجزء الأكبر من السنة ولا أشرب الشاي، ولا أمشي تحت المطر، أحسب نقودي وآكل الحلّوف المشحم الذي يجعل رائحة الفم كريهة. ووصل بي الأمر إلى أن أنكر العمامة وأسير عاري الرأس برغم البرد الذي يجمد الأذنين، ويجعل الأنف يرشح والعينين تبكيان. ثم، وبعد يوم في البطالة، في الجوع، في اليأس، ذهبت لآخذ الباخرة. أنت لا تستطيع أن تعرف. بعد عشرين سنة من ذلك، كان في انتظاري الشمس وأصدقاء طفولتي. استقبلوني كما لو أني كنت غادرت قبل ليلة. وفي القرية وجدت سكينة العيش مع شعبها. لم

أشارك في حربكم الأخيرة ضد الألمان. ولكني علمت أن الشجعان من آبائكم التحقوا بالجبال من أجل الكفاح ضد المحتلين. إن مراهقينا لم يفعلوا أكثر من أنهم اتبعوا طريقهم. لم أمون لا بالأغذية ولا بالأحذية رجال الليل أولئك. لأنهم لم يطلبوا مني ذلك. وأعتقد أني كنت سأفعل.

أطلق سراح جورجو بعد ساعة. ولكن لما وصل إلى ساحة التين قابلنا بسحنة شاحبة جعلت كثيرا منا يستقيم.

ـــ ما ذا فعلوا بك؟

فهز الحوانتي رأسه في صمت ثم مد يده ونزع القربة المعلقة على فرع واطئ من شجرة التين. وكب لنفسه ما أروى ظمأه ومسح شفتيه ثم أخذ مكانا له بيننا.

وأجابنا.

ـــ بي أنا؟ لا شيء. طرح علي الملازم أول بعض الأسئلة.

ـــ لك سحنة رجل يعود من مقابلة مع عزرائيل.

أعطى جورجو نفسه مهلة طويلة ثم أقرّ لنا.

ـــ رأيت بنت سليمان.

روى لنا إذاً أنه في عطفة رواق اصطدم بوردية التي كانت، على ركبتيها وجفافة في يديها، تمسح وتعيد مسح الأرضية التي كانت الجزمة الكبيرة تلطخها بالغرقة.

تابع.

ـــ وركّزتني طويلا بنظرة متضرعة، قبل أن تواصل عملها. هل كانت تترجاني ألا أقول شيئا أو بالعكس كانت تتوسل إلي أن أصف لكم عذابها. نكست رأسي وخرجت.

وفي الغد لم يكن أحد لاحظ غياب عيسى. وبعد يومين رجع الأقجع، على مشيته غير المنتظمة، أكثر صمتا واندفن في معصرته. لا أحد منا تجرأ على مساءلته. أخيرا، وبعد صلاة الغروب، قرر الإمام أن يطرح عليه السؤال:

ـــ هل استطعت أن تراه؟ هل لا يزال حيا؟

فهز رأسه بهدوء.

ـــ اعترضني بني حجار في خلال طريقي و لم أستطع أن أبلغ القرية.

ـــ وإذاً؟

ـــ أمام إلحاحي وعدوني بأن يخبروه.

ـــ الشائعة صحيحة إذاً؟ حسن العجوز لا يزال حيا؟

في خلال تلك الأعوام المضطربة كان صمت الليالي غالبا ما تقضه طلقات نارية. ولكن في تلك الليلة أحسسنا أن الطلقات كانت على مقربة غير معهودة. ولما خرجنا في الصباح (وكان الإمام أرجأ ساعة صلاة الفجر لتصادف نهاية حظر التجول)، كانت أنظارنا قلقة وموجهة في بحث عن بعضها.

وبعد وقت قليل جاء الملازم أول في زيارة إلى الإمام. وصل وحده راجلا، ووجهه يعكس ودا غير معهود.

وأعلن إلى الشيخ.

ـــ مات رأس البصلة، هل يمكن دفنه في مقبرتكم؟

ـــ هذا الرجل خان إخوانه، و لم يخن ربه. له مكانه بين المسلمين.

ـــ هل تقبل أن تقول صلاة الغائب.

ـــ الله وحده يحكم على أفعاله، وهو يغفر أو يعاقب.

إلا أن الضابط بقي إلى جانب الإمام، راضيا.

ـــ أعرف أنه تجري حكاية غريبة في المنطقة عن صعلوك صار لا يدركه الموت. أنت، رجل الإيمان والعقل، هل تعتقد في ذلك؟

ـــ أنا أومن بالله وبنبيه.

ـــ هل قابله أحد منكم حقيقة؟

ـــ أين إذاً؟ منذ مجيئكم هنا لم يعد لنا الحق في مغادرة القرية من غير إذن منكم. إنكم لا تسمحون لنا حتى بالتوجه إلى جني زيتوننا في الحقول البعيدة. أين نكون قابلناه؟

طلب الضابط مددا فحصل على عشرة رجال. وفي الأيام التي تلت مشطت الفرقة بالمشط الرقيق الجبال المحيطة. قرية بني حجار كانت تحت حراسة مضيقة. وأخيرا طلب من قبيلة الصهب الرحيل نحو محتشد قرب سيدي بونمر، وبعدها هدمت البيوت.

تكالب الضابط لم تكن له أي نتيجة. الرجل المبحوث عنه بقي متعذر القبض عليه.

على كل، علمنا ما ذا كان جرى في تلك الليلة من بعد أعوام لما رجع عندنا ذلك المحامي الصغير، وسرد علينا تلك الأحداث بكثير من التردد.

كان حسن المبروك، بعد صرعه الحارس، دخل الفيللا. ووقع على رأس البصلة الذي كان نائما في الرواق. وما إن فتح الرقيب عينيه حتى تعكرتا. سقط على مطرحه مكسور العنق. دخل حسن المبروك غرفة المحامي الصغير الذي استيقظ ناطا وحاول القيام. فأعيد

إلى مخدته براحة يد العملاق الذي خرج ليصعد إلى الطابق. دخل الغرفة الأولى والبندقية مشهرة.

وخرج حسن المبروك، منكس الرأس والبندقية، كي يذوب في الليل، ووراءه طلقات نيران الحرْكى المستنفَرين.

لو كنت تفهم لساني ما كان فاتك أن تسألني ما ذا كان حسن المبروك رأى في الغرفة. تردد المحامي الصغير طويلا قبل أن يلبي فضولنا. تحدث بكلمات مكشوفة، مستعملا تضمينات.

نعم، كان الملازم أول، لما أنار الغرفة وفتح بابها، قابلته فوهة البندقية. كانت وردية عارية تماما لما غادرت السرير وأسرعت مفكوكة الشعر مفتوحة الذراعين كي تضع من جسدها شاشة.

وصرخت.

ـــ أتوسل إليك، وفرّه عنك.

الفصل الحادي عشر

نعم، تلك كانت الحكاية المحزنة لوردية الأبية، ابنة حسن المبروك الصغرى.

لكن، في تلك الفترة لم نكن علمنا شيئا من ذلك. ذات يوم، أعلن إلينا المحامي الصغير موت وردية. ولم نطرح عليه أي سؤال. وردية الشقراء كانت دفنت قرب والدها سليمان.

مر الوقت، ببطء، ثم فجأة بدا متسارعا. شائعات مجنونة بدأت تجري. ووقع كثير من الهرج والمرج في ملحقة (لاصاص). وفر كثير من الحرْكى من غير أن يثير ذلك في شيء الضابط. ثم رأينا المحامي الصغير يأتي نحونا.

ــ هل يسمحون لك من جديد بمعاشرتنا؟

ــ لا، أنا جئت لأودعكم.

ــ هل نقلوك إلى مكان نفي آخر؟

ـــ لا، أنا حر.

ـــ كيف ذلك؟

ـــ ربحنا.

ـــ ربحنا.

ـــ نعم، بلدنا حر. الفرنسيون سيذهبون.

ـــ الروامة هزموا؟ برغم ذكائهم، ومعداتهم وكل المرتدين الذين نجحوا في إلحاقهم بهم؟ ما ذا اقترح عليهم رجال الليل؟ كيف فعلوا؟

ـــ أنتم الذين حكيتم لي بأنفسكم حكاية المشعوذ. تذكروا عباراته: النصر يعود لمن هو أكثر عزما وليس لمن هو أقوى.

ـــ ذلك اليهودي العجوز كان يفعل بحيث يكذب بنفسه أقواله. كان معه حق إذاً؟ لم نكن لنصدق ذلك في حياتنا أبدا. الروامة كانوا يبدون استقروا عندنا لمدة قرون، والوقت الذي كان يمر كان يدعم حضورهم. هكذا إذاً، يذهبون؟

ـــ إنهم يذهبون.

ـــ ولن ندفع الضرائب؟

ـــ لن تتعرضوا إلى المظالم.

ـــ ومن سيدير هذا البلد بعد ذلك؟

ـــ الذين يختارهم الشعب.

ـــ أناس مثله ومثلي ومثل جلول الحداد، عيسى الأقجع، أو جورجو العائد من الغربة؟ هل هم قادرون؟ هذا أمر مقلق.

بعد بعض الأسابيع ظهر من جديد، بالأسلحة وبالبزات، بعض من أولئك الذين كانوا غادروا كي يذوبوا في الليل. كانوا

اكتسبوا نضجا تركنا معجبين.

وطلبنا منهم.

ــ أين هم الآخرون؟

ــ ماتوا أو فقدوا. إنهم شهداء.

أعتقد أنه كان هناك بعض الارتياح الخجول عند معاينة غياب عمر المبروك.

قالوا لنا.

ــ الروامة هزموا. سيعودون جميعا إلى البلد الذي منه جاءوا. وسنعود أخيرا إلى وادي إكليل الجبل والينابيع التي تغني. هيأوا أنفسكم للذهاب.

لكن الحكماء منا شرحوا لهم أننا لا نريد ترك هذا المكان الفقير الذي استقبلنا وسمح لنا بالتعيش، وأننا متشبثون بأرضنا المحجّرة، وبزيتوننا الهزيل وبيوكلبتوسنا الحافظ، وأننا تعلمنا أن نحيا في الحرمان والجهد وأننا نخشى أن تضمحل فضائلنا عند اتصالنا بالوفرة وبالسهولة.

ــ فليذهب الذين يرغبون في ذلك، نحن نصحبهم بتمنياتنا. سنعطيهم كل الوثائق التي تشهد على شرعية ملكيتنا لأراضي وادي عفسة الذيب والعشب الوافر. تنازلنا لهم عن حقوقنا كلها بإرادتنا.

استطاعوا أن يقنعوا بعض العائلات للالتحاق بهم. راكموا أغراضهم في الطنبورات التي تركها المعمرون وتقدموا نحونا.

أكدوا لنا.

ــ قريبا ستلتحقون بنا. بعد أن استعدنا سيادتنا لا أحد يستطيع أن ينازعنا على وادي النمام والمساءات المعروكة بالحنان.

وبمجرد أن نستقر سنأتي بكم. وستجتمع قبيلتكم من جديد في الوادي السعيد.

كانت عودة استبشار. كل القرى التي مروا عليها كانت محتفلة. لقد استقبلوا من غير تريب. وفي طريقهم صادفوا مهاجرين مثلهم متوجهين إلى أودية أخرى. وفي كل توقف لهم كانوا، حول نار كبرى، يتمتعون بخلط أحلامهم إلى وقت متأخر من الليل.

وذات صباح مشرق، اكتشفوا عند أقدامهم المنحنيات الرخوة لوادي الأجداد والحنين. ولكنها لم تكن تقدم لهم لدهشتهم سوى خطوط مستطيلة لحقول الكروم.

ـــ أين هي حقول القمح، وأشجار اللوز، وأدغال الدفلى والصنوبر القويم وأشجار لسان العصفور الضخمة وأشجار الرمان السخية وجلاليب المرتفعات الغابية حيث تتكاثر الأرانب والخترير البري. ما ذا صار بها؟ هل كذب علينا آباؤنا؟

من كل جهة، لم يكونوا يشاهدون غير تصفيف كئيب من الكروم.

كانت العيون جفت، والآبار ردمت، والعناصر لم تعد تجرف غير نفايات حمراء من الأقبية والمقْطرات.

ـــ حتى العشب صار لا ينبت. ما الذي فعلوه بوادينا؟

لم يكونوا يعلمون أن قانونا أثيما منع سقي الكروم، ولذلك فرط المعمرون في العيون والآبار. وكانوا يجهلون أن الكرْم الجديد لا يتحمل نباتا ولا ظلا حوله، وأنه حيث يغرس تتقهقر المروج وتسقط الأشجار.

لم يتأخر من كانوا أكثر تأججا في رد الفعل.

ـــ لا يهم. لم يكن العمل لأنْ يثنينا. بأيدينا سننتزع هذه الأشجار المدنسة كي نزرع الشعير والقمح، ونغرس اللوز والياسمين.

بدأوا في العمل. ولكن في اليوم الثالث جاء الدرك وحملوهم ليقدموهم أمام القضاء.

ـــ أنتم متهمون بتخريب أملاك عمومية. ستدفعون غرامة عن كل كرم انتزعتموه.

ـــ ولكنها أراضينا.

وأروهم عقود ملكياتهم فضحكوا في أنوفهم.

ـــ كتبكم القديمة ليست واضحة.

ـــ إنها لا تمنحكم أي حق. كل عقد ملكية يجب أن يكون في شكل موثق ومسجلا في مصالح المسح وإلا عد لاغيا. هذه الأراضي التي تطالبون بها كانت صودرت أو تم التنازل عنها أو بيعت، واشتريت عدة مرات. واليوم، وقد تخلى عنها آخر من كانت في حوزتهم، فإنها ألحقت قانونيا بأملاك الدولة.

ـــ ولكن لأن قبيلتنا نهضت من أجل مقاومة الغازي فإن أملاكها انتزعت منها. إنه من الطبيعي أن نستعيد عقارنا.

فأجابهم القاضي.

ـــ أتفهمكم، ولكن التماسكم مرفوض قانوناً.

بتفضيل خاص اقترح عليهم الشغل كعمال زراعيين في المزارع المؤممة. لكنهم أجابوا أنهم لا يرغبون ولا يعرفون حرفة إعطاء الكروم المعذبة عناقيد ثقيلة، ولا تحويل لب ذلك إلى تلك السوائل الحمراء أو البيضاء التي تذهب بالعقل والميزان. وأضافوا أنهم حسب ذاكرتهم القديمة لم يكن أحد منهم قبل هذا الارتزاق الجديد، مفضلين

النتائج المخيبة للمجهود والتي تكون مقبولة إراديا على ضمان أجر بشروط تغريبية.

تناقشوا طويلا في ما كان يجب فعله.

ـــ لن نستطيع العودة هكذا إلى زيتونة. سيكون ذلك عارا.

ـــ ولكن لمن نتوجه؟ إن قضاة اليوم يشبهون قضاة الاحتلال ويتكلمون كلامهم.

تم الاتفاق على أن تتوجه بعثة إلى العاصمة لعرض القضية على المحامي الصغير.

ـــ المدينة ضخمة. أين سنجده نحن؟

ـــ يقال إنه أصبح رجلا مهما. كل السكان لا بد أن يعرفوه.

الشرطي الذي كان يحرس مدخل المبنى لم يدر ما ذا يفعله بهؤلاء الرجال الشعث البائسين الذين يتكلمون بلهجة غير مفهومة. أرسلهم إلى الحاجب. هذا الأخير كان يعرف لسانهم.

أعلن إليهم بود.

ـــ أنا أيضا من البلد. ما ذا ترغبون؟

ـــ مقابلة المحامي الصغير.

ـــ هل عندكم موعد؟

هز المبعوثون أكتافهم.

تغيب الرجل عشر دقائق ليعود رفقة سكرتيرة سلمها إياهم. هذه خبأتهم في غرفة حيث بقوا يتصبرون، جالسين على كراسيهم بكل تأدب، لا يتحركون صامتين إلى أن انفتح الباب.

طلب منهم الوافد الجديد.

ــ ما ذا تفعلون هنا أنتم؟

شرحوا له سبب حضورهم.

ــ منذ متى وأنتم هنا؟

ــ منذ الصباح.

ــ ولكنه الليل الآن، ولا يوجد أحد. المكاتب أغلقت. أنا هو الحارس.

بقي الرجل لحظات يحك رأسه.

ــ أنا مضطر إلى إخراجكم.

ــ وإلى أين نذهب؟

واصل محاورهم حك قشرة رأسه ونظر محمل أكثر فأكثر بالشفقة.

ــ عاد الوزير إلى بيته. إنه يسكن على خطوتين من هنا. يمكن أن أعين لكم المكان بشرط أن لا تكشفوا أني أنا الذي أرشدكم.

فتح طفل صغير الباب. وصل المنفي القديم في الحين ووضع يده غريزيا على كتف الطفل في حركة حفظ أبوية.

ــ نعم؟

لم يتذكرهم. ذكره الرجال الأربعة بأنهم كانوا من بين الأكثر انتباها إلى خطبه في مقام الولي في زيتونة. فاعتذر لما علم ما حدث لهم في يومهم من إزعاج.

ــ كل أولئك الأشخاص الذين يحيطون بنا هم المفترض فيهم أن يساعدونا. في الواقع نحن رهائنهم. هم الذين يقررون من أو

لا يقابلنا. من يسمعهم يعتقد أن لنا استعمال زمن مليئا بالمشاكل الكبرى التي تنتظر الحل. في الواقع، يحدث لي أن أشعر بالملل خلال ساعات داخل مكتبي، بينما في الأسفل يطرد أعواني الناس الذين يريدون مقابلتي. هذا، بدون أن نعد أن أي شخص لا يحمل البدلة وربطة العنق لن يكون له حظ في تجاوز عتبة المبنى. لقد نسوا بسرعة الجبال التي منها جئنا.

كان حضور المحامي النحيف، ضمن الأثاث الوثير في الغرفة الكبرى، يبدو ساخرا. بقي متقوقعا في معطفه مرتجفا برغم الجو الدافئ.

ـــ رطوبة هذه المدينة لا تساوي لدي شيئا حسنا. إنها تثير عندي كل تلك الأوجاع المتولدة خلال إقامتي في الزنزانات ذات الجدران الراشحة. هذه المسئوليات التي تكرهني على ساعات عمل مجنونة ليست موضوعة بشكل يساعدني على تحسين حالتي الصحية. أعتقد أني سأعود لأعيش في قريتكم.

بقي الرجل الصغير متفكرا، بعد أن سمعهم، وقال لهم أخيرا:

ـــ أنتم لا تتصورون أن البلد سيعود بقرن ونصف إلى الخلف. إنه وهمٌ أن نعتقد أنه يمكن أن نمحو الماضي.

ـــ أنت تتكلم مثل القاضي الذي أداننا.

ـــ إنه صوت العقل. الوادي السعيد لم يوجد أبدا. إنه ابتكار حنينكم إلى الماضي. يجب عليكم أن تنظروا نحو المستقبل وأن تعودوا إلى زيتونة التي رأتكم جميعا تولدون. هناك يجب عليكم أن تبنوا وأن تعيدوا، وليس في الوادي الذي طردتم منه.

لكنهم غادروا وادي العنب والأقبية الفائحة، رافضين عار العودة فارغي الأيدي، لكي يتشتتوا في المدينة.

في خلال الأعوام التي تلت، فإن ولد علي المرقى إلى وظيفة ساعي بريد والوحيد الذي يقرأ الجريدة، أظهر لنا عدة مرات صورة المحامي النحيف.

ـــ صار بالتأكيد مُبْردا.

ثم، ذات يوم رأينه يترل عندنا، محوطا بدركيين ويحمل في يده الحقيبة نفسها. واستقر في الغرفة ذاها في الفيللا ذاها.

كان هزل أكثر، وصغر أكثر، وحركاته غير واثقة أكثر. ولكن في ذلك الجسم الخرب بقي أيضا النظر المتوهج.

طلبنا منه.

ـــ أنت إذاً مريض؟

هز طويلا رأسه أمام سحناتنا الجاحدة.

فأجابنا.

ـــ نعم، مريض جدا. جسمي عرف الزنزانات نفسها الرطبة دائما. ولكني أثابر على الاعتقاد بأن المساس بالحريات ورفض العدالة يجب إدانتهما من حيث جاءا.

لم نفهم شيئا مما كان يقوله، ولكننا استقبلناه بحرارة. عكف على دراسة مخطوطاتنا وكتب أخرى أكثر سرية كانت ترسل إليه من الخارج والتي كان الدرك يتصفحها بدقة قبل أن يسلموها له في حركة مترددة. وما لبث أن صار يعرف أفضل من أحسن حفاظ تاريخ قبيلتنا القديم. كان ذلك ما سيثير بعض الثراع. كان حفاظنا، وهم الوحيدون من يجدون أنفسهم قادرين على العُقد التي يتعذر

فكها في التحالفات العائلية، يرجحون بثقل تذكاراتهم في ميزان تقسيم الميراث. ولكن التواريخ التي كان يعتمدها المحامي كانت تدخل أحيانا إعادات نظر خطيرة. كان الأكثر تعقلا منا يُفهمونه أنهم يفضلون الذاكرة الخائنة والسخية، التي تعرف كيف تصحح عدم المساواة البديهية، على المكتوب الصارم الذي لا يمكن الاعتراض عليه.

ـــ إننا لا نشك في تلك الأخطاء. ولكن ما هي الحقيقة إذا كانت تضاعف المظالم؟ إن عوائدنا تسمح لنا بأن نكيف صرامة القانون بالإنصاف، متجنبين أن ندفع أحدا إلى البؤس بينما الأخ في اليسر.

انضم إلى رأينا، ترك مخطوطاته القديمة إلى الغبرة وشرع في دراسة اللغات الأجنبية.

طلبنا منه.

ـــ إنك تزاول لغتنا ولغة القرآن، كما أنك تقرأ وتكتب لغة الروامة. ألا يكفي ذلك؟

ولأنه لم يرفض أبدا آراء الإمام فقد بقينا طويلا كي نكتشف ما كان هذا الأخير يقول له.

ـــ هذا الرجل على قدرة كبيرة من الأفعال والأقوال. ولكنه لا يؤمن بالله.

كان المنفي المرتجف يؤمن خاصة بمجموعة من القواعد الثاقبة والمركبة، مكتوبة في وثيقة من المفروض على الجميع أن يعرفها، والتي كان يصر على المطالبة بتطبيقها الدقيق. إن عودته إلينا كان سببها دفاعه عن الضعفاء والمهجرين والتعساء. و لم يتردد في أن

يقترح على المجذومين أن يرافع عنهم في ملف صاحب ضد الدولة. ولكننا ردعناه، لأننا نعرف أن قضية مماثلة لا تكلفه سوى نفي إلى مكان أكثر عزلة.

لذلك السبب بلغ غضبنا أوجه لما علمنا بمناسبة تلك الزيارة المهيبة أن رجال الأعمال أولئك ولأهميتهم الخاصة فرضوا إبعادا جديدا لضيفنا.

ـــ أولئك أيضا يخافون منك؟ وكنا نحسبك منهم.

ـــ أولئك يخافون من كل شيء: من نسائهم ومن ظلالهم، من الموالين لهم بلا شروط ضد أعدائهم، ولكن خاصة من صوت العدل.

عندما حضر الدركيون المكلفون بنقله تجمعنا في صمت أمام الفيللا. سحناتنا المهددة وإرادة عمر المبروك في تجنب حوادث حثّتهما على التفاوض. تم التوصل إلى أنه يكفي أن يعِد المحامي بأن لا يخرج في ذلك اليوم.

في الصباح الموعود، بدأت تتوافد عندنا سيارات مدنية وعسكرية وشاحنات ودبابات وسراب من الهيليكبتيرات، بدون حسبان الجنود والشرطة والمصورين والصحافيين، ورجال آخرين أكثر أهمية يعطون الانطباع بأنهم يعرفون سن ولد الناقة الدقيق.

وعندما تقدم الحشد نحو النصب الصغير عاينا أن عمر المبروك لم يكن يظهر إلا في الصف ما قبل الأخير، مدفوعا بزحام الغوغاء، ومع ذلك بشوش وباسم، جنائزي وخدوم، ظريف ووجل.

أسر إلينا محمد لاحقا.

ـــ ما تجهلونه هو كم هي كثيرة قضبان سلم السلطة.

يمكن أن نصعد إلى السماء، ويكون دائما هناك ناس في الأعلى.

الفصل الثاني عشر

شرع الأجانب، من غدهم، في العمل بآليـــاتهم الهرقيليـــة. وللكمية الضخمة من الفواكه والخضار التي كانوا يشـــترونها فإننـــا قدرنا أنهم يتقاضون رواتب هائلة. ولكنهم كانوا لا يتذوقون لحـــم نعاجنا ولا معزنا. كانوا يفضلون أن يأتوا بلحمهم المجمد في صناديق كبيرة.

استخلص الحداد بهذره المعهود.

ـــ لأنهم يأتون من بلد الثلج. عيونهم وسواقيهم تتجمد وتكف عـــن الغناء خلال أيام السنة الأقل شروقا. لذلك السبب فـــإن الأجانـــب حزينون.

طلبوا أن يشغّلوا منا بعض المعاونين. تكفل عمـــر المـــبروك، خلال زيارة تفتيشية قام بها، بأن شرح لهم خصوصيات تشـــريعات عملنا.

ـــ يجب أن تكونوا عادلين وأن تشغلوا واحدا من كل عائلة. إنهم يقبلون أن يتقاضوا أجورا حسب الحد الأدنى للأجر المضمون، ولكن لا يجب أن تتعجبوا من كسلهم: فهم لم يعتبروا العمل غاية في حد ذاتها أبدا. يجب أن تعطوهم استراحات لأداء صلواتهم اليومية وعطلتهم السنوية خلال موسم جني الزيتون.

بالطبع، رفضنا أن نتعاون معهم. أغرت الأجور الموعودة بعض المجذومين. ولكن آلياتهم المرعبة ردعتهم عن أن يقتربوا.

خلال أسابيع قليلة تغير مشهد حياتنا العادي: رواب سُطحت، مهاوٍ ملئت، صخور ذُرّيت، غابات حصدت، طرقات سُويت. ظهر الأجانب لا يتعبون.

ـــ هم لا يرتاحون أبدا؟ ولما ذا هذا التكالب؟

نددنا بشدة لما حاولوا إزالة مقبرتنا. أعلن إلينا مكبر صوت الأجانب:

ـــ كفوا عن الاضطراب، نحن لا نريد سوى نقلها إلى مكان غير مزعج. نحن نحترم عقائدكم وتقاليدكم. إن الدراسات الدقيقة التي أجريناها تسمح لنا بأن نضمن لكم أن عظام أجدادكم ستجد وضعيتها الصحيحة الأولى وأن أرواحهم ستخلد في السلام. في البداية سنخصّ كل قبر بقبرية جميلة من الرخام. على كل، فأنتم عاجزون عن الاعتراض. اشترينا جميع أسلحتكم وجميع سروجكم.

علق سيد الحِدادة بمرارة.

ـــ لم نكن نعرف ثمن تلك الأشياء التي تنازل عنها آباؤنا.

أقدم الأجانب حتى على تهديد يوكلبتوساتنا الضخمة بالمنشار الكهربائي. قبِل المحامي، الذي تعلم لغتهم في الكتب، أن

يرافع عن قضيتنا عندهم. كانت قضية خاسرة.

ـــ لم يريدوا أن يفهموا شيئا وبدوا متعجلين، متخوفين من دفع غرامات عن تأخر الإنجاز الواردة في العقد.

أشعلت فينا نساؤنا المستاءات ثورتنا فربط كل ذكَر منا نفسه إلى جذع، باستثناء الإمام. كنا لا نُفك إلا في أوقات الصلوات والوجبات، وغادر رئيسنا الديني مسجده ونساؤنا بيوتهن من أجل أن يسندوا أجسادنا وأرواحنا. كان كل واحد يأكل أو يصلي قرب شجرته. جوقة الطيور كانت تسند قضيتنا، ولكن زقّها كان يوسخ عمائمنا. نصح مكبر صوت الأجانب، ترجى، هدد. بدون فائدة. ذهب ممثلهم إلى سيدي بونمر كي يوجه إلى المُبْردين برقية تذكّر بأنهم كانوا طُمئنوا على أنهم سيجدون من السكان الأهالي كامل الطاعة، وتهدد بكشف البنود المحتواة في ملحق العقد السري.

في الغد، ظهر عمر المبروك عندنا أكثر هيجانا من خنزير بري مجروح.

صرخ عند نزوله من السيارة.

ـــ ما ذا يجري؟

شرح له أكثرنا شجاعة:

ـــ هذه اليوكلبتوسات غرسها أجدادنا يوم استقروا في مكان الحيرة هذا. وهي تنمو بحيوية عندما يجف كل شيء من حولها، معطية المنفيين أملا من الظل ومن التعيش. نمو تلك الشجيرات السريع يعطي بلا شك المنهزمين قوة لمواجهة الندّية. واليوم فهي تجعل الريح والطيور تغني، مانحة إيانا ملجأ رحيما للحظات استراحتنا، وللمجذومين أوراقا مطهرة في حماماتهم. لا يمكن أن تُمس.

ضحكة الوالي الصاخبة أفزعت طيور التخلي الـــتي طـــارت متسرعة. تقدم ببطء نحونا، منفوخ الصدر، واليدان في الخاصرتين.

ـــ لم أكن أعلم أنكم شجعان. أين كنتم يا بواســـلي يـــوم كان والدي يتضرج تحت قبضة الوحش؟ هل رأيناكم يـــا أبطـــالي تأخذون السلاح ضد المحتل وتواجهون فرقه التي هي أكثر عددا مـــن نحل جبح، ومدرعاته العنيدة في هجومها، وطائراته الأكثر تهيجا من زنبورة مزعَجة. كلاّ، فضلتم أن تحافظوا على بنـــادقكم في الـــدفء وعلى أدوات قتالكم كي تتنازلوا عنها لأنـــاس ســـيتخذونها مـــواد للمتحف.

نزع نظاراته.

ـــ أولاد القحبة، أنا سأنيلكم واحدا بعد آخـــر، هنـــا، في وضح النهار، قبل أن أمر على جسد عذراواتكم ونسائكم. فلتعلموا أنه بدءا من الآن لم يعد في هذا المكان وجود سوى لسلطة واحـــدة وواحدة فقط: سلطتي، وقبل أن أسمح لكم بالخراء أو بمسح الخنونـــة يجب عليكم أن تطلبوا ذلك مني.

ثم بدا فجأة أنه لان.

ـــ تعقّلوا. أنتم تعرفون أن هذه الطيـــور تنـــهب حقـــول شعيركم وزيتونكم وأن ضجيجها يزعج قيلولتكم. رئيس بلـــديتكم الشخصي اتفق معي. زد على ذلك الجذام الذي أصاب بالعدوى كل الأشجار بعد أن سمحتم من غير وعي للمرّحلين بالاســـتقرار تحـــت الأشجار. لاحظوا أوراقها. أكلها جفاف عفـــن ففقـــدت لجيْنتـــها الطبيعية. وعند أدنى هبة نسيم تنتشر الجزيئات الدقيقة في الفضاء. منذ بعض الوقت وأنتم تتنفسونها من غير أن تنتبهوا. أنـــتم بـــلا شـــك

مصابون كذلك. أسأل نفسي إن لم يكن أمركم قُضي. يجب إسقاط هذه اليوكلبتوسات بسرعة.

تجول بيننا لبعض الوقت ثم انفجر ضحكا لما تعرف على ابن مسعود.

ـــ أنت هنا، بينهم؟ كنت أعتقدك جبانا كي تجد دائما ذريعة لتتهرب. هل هي وظيفتك الجديدة التي جعلتك أكثر إقداما؟

شرع يفك عنه رباطه. وهمس له.

ـــ أنت قاضي هذه المدينة الأول، وممثلي. دورك كان أن لا تترك السكان يشوشون هكذا. تقاعست. أنت مطرود.

ورمى له الحبل فوق عاتقه.

ـــ اعتبارا لوظيفتك سمحت لك بأن تبقى في المدينة حيث تتعايش، بصفة غير شرعية، أنت والإمام. يجب عليك أن تلتحق بكوخ أجدادك بعد أن تصفي كل مؤخرات الكراء. عند قدوم الليل لن يكون في مقدور ابنك الذهاب ليعتصر موعودته في عمق المغسلة. من الآن فصاعدا أضطلع شخصيا بإدارة زيتونة. بالمناسبة، عاينت نقص النظافة في قهوتك. إنها لا تلبي المعايير القانونية.

ـــ كيف ذلك؟

ـــ ليست متوفرة على ماء جارٍ قانوني.

ـــ الماء الجاري؟

ـــ لا تتوفر على مرحاض إلزامي.

ـــ ولكن العادة أننا نقضي حاجتنا في الطبيعة. الأماكن التي تسمى بيوت الراحة لا توجد حتى في مساكننا.

ـــ القانون يجب أن يُحترم في كل مكان. محلك مغلق إذاً

لمدة ثلاثة أشهر. إعادة فتحه مرهونة بإكمال التهيئة الضرورية.

وتوجه عمر المبروك نحو سيارته. ثم دار إلينا بعد أن أعاد نظاراته على أنفه.

ـــ أما بالنسبة إليكم، أيها المغفلون المساكين، فيمكنكم أن تبقوا حيث أنتم. المناشير قادمة. ستقطع كل الجذوع البشرية والنباتية.

قطعت الشجرات. هاجرت الطيور، التي كانت تسكنها، مجموعات. صرنا، من وقتها، نستيقظ كل فجر على كارثة كونية. لم نحصل سوى على وعد بالحفاظ على التينات الثلاث من أجل راحتنا اليومية. أعلن المجذومون أنهم تعافوا ودخلوا جماعات جماعات يشتغلون عند الأجانب. صاروا يتعالون علينا بأجورهم التي أصبحوا يتقاضونها.

يوما بعد يوم، كانت آليات الأجانب تغير مشهد طبيعتنا. لما تقرر الشروع في تفجير زيتوناتنا بالديناميت جاءنا عمر المبروك.

ـــ ليس هناك ما يدعو إلى أن تجعلوا من الأمر دْراما. تلك الشجيرات الضنينة لم تكن تعود على مشقتكم الكبيرة إلا بثمار هزيلة. زيادة على معصرة الأقجع المغلقة فإني لا أرى ما ذا ستفعلون بمحاصيلكم. على كل، ستعوَّضون عنها بسخاء. ستأتي قريبا مصالح العقار من أجل تقويم كل قطعة أرض وكل شجرة. سترثون ثروة تمكنكم من تحقيق أعجل أحلامكم القديمة: زيارة الأماكن المقدسة مع إمكانية السعد أن تُتوفوا هناك، أو تزوجون، في رفاهية، آخر مراهق لكم مع العذراء التي يترغبها.

ـــ ولكن مما ذا سنعيش؟

ـــ لا تخافوا. فكرت في الأمر. أعدكم بأني، هنا، من هـــذا البلد الذي في طرف العالم، سأجلب ماكينات تمخر الطين والحجـــر من أجل الذهاب عميقا بحثا عن الماء وتفجيره بقوة. تستطيعون حينها فلح الدليع اللذيذ والكانتالو المعطر وفلفل النـــار، واللوبيـــا الهشـــة، والطماطم العاصية والأجاص ذي الذوق الأكثر لذاذة مـــن شـــفاه عشيقتكم الأولى. ستصبحون أغنياء وأصحاب شحم.

كنا على بعد أيام من الجني، ولكن رجال درك عمر المبروك رفضوا أن يتركونا ندخل حقولنا.

ـــ أعرف جيدا أنكم اتفقتم سريا مـــع عيســـى لتســـلموه منتوجاتكم كي يدير رحاه ليلا.

ولأن طيور الزيتون حُرمت من غذائها المفضل فقد هاجرت، على أسف ابن الحداد البكر، الذي كان سيدا في الرمـــي بـــالمقلاع: كانت رمياته ذات الدقة التي لا تضاهى تبيد جحافل هواة الزيتـــون. كان، وهو يحرس مزروعاتنا، يجمع أطواقا من صيده ويقـــف علـــى حافة الطريق ليعرضه على أصحاب الســـيارات العـــابرين. انتـــهى الصعلوك المفيد إلى أن لفّ مقلاعه ولكنه بقـــي رافضـــا الالتحـــاق بمحْددة أبيه.

بعد بعض الوقت، توفي الأقجع حزنا من عـــدم النشـــاط. عندما رفعه الرجال الأربعة المكلفون بالمحمل انتبهنا إلى أنه لا أحد منا كان يعرف الطريق إلى المقبرة الجديدة. جميع ممراتنا كانت غـــيرت، سوّيت، عدّلت أو حذفت. من وعودهم الكاذبة واجهـــت حيرتنـــا طرقٌ جديدة مستقيمة. همنا في الطبيعة، كل واحد منا كان يقـــوده حدسه.

انتبهنا إذاً إلى أي حد كان عالمنا دُنّس.

لم يعد موجوداً أيّ معْلم. غيرت الطرق مسالكها والجبال مواضعها والسهول بعثرت والروابي سطحت. غيّر الجنوب موقعه والسماء لونها. وداخَل المناخ بين فصوله.

لما وصل، أخيرا، حاملو النعش، متبوعين ببعض الحاضرين، انتظروا طويلا وصول الإمام، الذي كان وحده يعرف ترديد صلاة الغائب. بلا فائدة. عند الغروب تم الاتفاق على دفن عصّار الزيت من غير مراسم.

لم نعد إلى القرية إلا عند نزول الليل، متعبين، شُعثاً، لا نقْدر على التعرف على بعضنا.

اكتشفنا أخيرا أن عمر المبروك كان معه حق. غبْرة اليوكلبتوسات الدقيقة أصابت عقولنا. واكتشفنا لدى عودتنا أن الكلمات غيرت معانيها والأطفال جنسهم والكبار أعمارهم والنساء رجالهم والرجال حرفهم وثروتهم.

أعتقد أنه ابتداء من ذلك اليوم كنا بدأنا نعي الخراب الذي أحدثه مجيء عمر المبروك.

الفصل الثالث عشر

كان الأجانب، بمجرد أنهم أتموا أعمالهم وشحنوا عتادهم، اختفوا فجأة مثلما كانوا جاءوا. ولم تكن لهم حتى الكياسة ليشعرونا أنهم يغادروننا.

أكثرنا رجحانا للعقل لاحظ لنا:

ـــ لن يفهمونا أبدا. إنهم يعيشون تحت ديكتاتورية المحاسبتية. ويندهشون للكرم الذي يؤسسنا. وها نحن، بعد قبض صكهم، زاهدون في كل مصلحة. لن نراهم إلا خلال الإمضاء على عقد جديد. كان عليهم على الأقل أن يردوا لنا بنادقنا وسروجنا.

بدأ المتحضرون، مجذوبين بالفيللات التي نصبت، في الظهور مجددا. ومع الوقت تعلمنا جيدا كيف نعرفهم. كان يظهر عليهم أنهم يريدون أن يكونوا في كل النقاط مثل الأجانب الذين كانوا غادروا. كانوا يبقون عاريي الرؤوس تحت أشعة الشمس النيئة، تاركين بلا

حياء شعورهم، التي يحتفظون بها طويلة، تلاعب الريح وتحجب جباههم وتدغدغ عيونهم. ويتظاهرون بأنهم في راحة في تلك الملابس الضيقة التي تشدد على صدورهم ولكن أيضا الأفخاذ، غير واعين بعدم لياقة تلك السروايل الضيقة التي تنحت أعضاءهم الجنسية. ويتجنبون إلقاء السلام على المارين الذين يقاطعونهم، مواصلين طريقهم حانين رؤوسهم كأنه مستحوذ عليهم بالاحتياطات الشديدة. وعلمنا من بعد ذلك أن عضوا من أمة الرسول، بالنسبة إليهم، له واقع أقل من مخلوقات المداد التي تلتصق بالأوراق والتي يولونها أهمية خارجة عن العقل. وهكذا، بالرغم من قواعد اللياقة البسيطة، يستطيعون أن يبقوا جالسين، عندما يدخل عليهم زائر في مكاتبهم، رؤوسهم منكبة في أوراقهم. ويحدث أنهم يقضون ساعات طويلة في مناقشة أشياء مجردة بدلا من أن يكرسوا ذلك لأعمال المشرع وأقواله. بالنسبة إليهم، لا شيء كان موجودا قبل أن يترجم إلى رموز. إنهم يجهلون الفعل الأكثر بديهية، الحقيقة التي لا تدحض، الشهادات الأكثر وثوقا، من أجل أن يعتقدوا في خربشات غير مفهومة وسخيفة. ينفرون من أن يعبروا بلغة الرسالة. ففي وقت لاحق كنا انتبهنا إلى أنهم لا يتقنونها. من غير المفيد ذكر أنهم لا يفهمون شيئا من لهجتنا. هذا يعني أنه في كل مرة كلما وجد واحد منا نفسه مستدعى ليشرح قضيته، وهو يعلم مصيره، لا يستعمل سوى لغة أمه. يستاء المتحضرون ويتركونه يذهب. أما بالنسبة إليهم، فإنهم يفضلون استعمال لهجة الروامة، حتى وهم يخاطبون نساءهم وأطفالهم.

أدركنا أنهم مخلوقات بلا إيمان. لا نراهم أبدا في المسجد، ولا

حتى في صلاة الجمعة، ولا في صلاة العيد، وأقل منهما في صلاة طلب المطر. وعلمنا في ما بعد أن كثيرا منهم لا يكتفي بالمشروبات المحرمة ولكنهم يجرؤون على إدخال الزجاجات إلى بيوتهم ويشربونها، بلا خجل ولا حياء، على مرأى من أزواجهم وأبنائهم.

كان المتحضرون رجالا بلا شرف. يتركون نساءهم يخرجن وحدهن وسافرات، بلا حماية ولا حراسة. ويذهبن من تلقاء أنفسهن إلى حانوت القرية وبوجه مكشوف، من غير أن يترلن عيونهن، ويطلبن من جورجو المواد التي يردنها. ولكنهن كثيرا ما يعدن خائبات، لأن رفوف المحارب القديم لا تعرض إلا خيارا مقلصا. فيأخذن إذاً سيارات أزواجهم الباردين ويذهبن إلى سيدي بونمر.

ولأن المتحضرين أخذوا في الاستقرار أكثر فأكثر تكيف جورجو بسرعة مع الطلب الجديد المربح جدا. تموّن بتلك العلب ذات الألوان الغامضة التي تعاند في إخفاء ما تحتويه كي تعطي صورة متلاشية وباردة، مدشناً بذلك عصر الاحتيال المعمم، الذي يحرض الناس على تفضيل الظل على الفريسة. بدأ ينتهر ثم يحتقر زبائنه التقليديين، الذين كانوا يكتفون بالسكر والقهوة والملح وبعض الغرامات من راس الحانوت. وعند دخول متحضرة يغمز لنا غمزة كبرى، كأنما يدعونا إلى حفل غير مشهود ويحذرنا في الوقت نفسه طبعه الساخر. هكذا كان يحرض على ضلوعنا في البحث عن مبرر ليقدم لها قبلنا ما تطلبه. تعبر وجهه فرحة مفاجئة، وفي لغة الروامة يحيي بكل احترام القادمة فيما نحن نخفض رؤوسنا حياء. ثم يروح يزين لها المادة الجديدة التي حصل عليها والتي ضاعف بلا خجل أسعارها.

ـــ وعلام نحافظ على أناس يربحون في الشهر ما يساوي دخلنا السنوي؟ إنه لا يعنيهم ثمن المواد التي يشتروها كأخطاء في الجمع.

لم نتعلم الثنائية. وبرغم سنه، فإن جورجو لم يكن يكف عن النزول في تقديرنا. و لم نكن مغفلين تجاه ملاهيه. نحن نفضل الرجل الذي يستقبلنا في حانوته من دون أن يشعر أنه مضطر إلى أن يبتسم لنا أو يدفعنا إلى الشراء، والذي غالبا ما يتركنا، متمددا تحت التينات، نخدم أنفسنا بأنفسنا، كما كان هو أول من يصب غضبه على الممونين عندما يجد نفسه مضطرا إلى رفع سعر مادة ما.

لم يتأخر إذاً في هدم الجدار الذي كان يفصل محله عن محل طرّاز البرانيس الذي خسف بصره، والذي مع الوقت فقد زبائنه إلى حد أنه لم يعد يستطيع العيش إلا من صدقاتنا المموهة. في وقت التنازل عن العقار التجاري، اعترض كثير منا كيلا ينهي الرجل العجوز حياته في البؤس. كانت غطرسة جورجو تتضاعف مع ارتفاع رقم أعماله واكتشفنا كم كانت غربته في الخارج دنّست روحه.

نحن عفيفون، ولكن متسامحون. شيوخنا كانت تصدمهم تصرفات نساء المتحضرين اللائي يتركن أذرعهن عارية حتى الإبطين وسيقانهن إلى الركبة واللائي يبدو عليهن أنهن يفضلن، بطعم التحرش أو التعهر، قمصانا تجعل حلماتهن تبدو ناتئة، وتنورات تقوْلب أردافهن إلى حد أن العابر يصير لا يجهل شيئا من تشريحهن ويمكن أن يعريهن بالنظر.

لكننا فهمنا أن تلك الألبسة والسلوكات كان يجب وضعها

على حساب تقليد مؤسف. ناسين تعاليم الرسول، فإن المتحضرين يعيشون وأنظارهم نحو المدن الأجنبية حيث كثير منهم درسوا هناك وقضوا مراهقتهم. إنهم، وهم يشحنون تأثرهم الذي يعود إلى صباهم بحنين لا يوصف، يتندمون على بلدان الحنان تلك وفسحات الحب على طول أرصفة الأنهار الكبرى. يربطون هكذا تلك البلدان بأجمل أحلام شبابهم. على المقاعد الجامعية، حثهم أساتذتهم على التنكر لفضائلنا لصالح قيم العلم تلك وعلى الفعالية والمردودية. طوال الطريق، فإن أذرع الفتيات الشابات الجميلات التي تعانقهم تهيج بالرغبة الاستعراضات المتقشفة.

كل شيء بدأ بالمرأة، كنا نعلم هذا منذ زمن.

لكنهم كانوا لا يتبينون أن قيمهم الجديدة، المأخوذة من المعارف الأجنبية، كانت ستقطع جذور ذواتهم. حكموا على أنفسهم، هكذا، بأن يعيشوا في الحيرة والتمزق، غير قادرين على التفريق بين ما يؤسسهم وبين ما يكونهم. ولأنهم ينسون من أين هم جاءوا فإنهم يجهلون إلى أين يتجهون.

فقدوا روحهم. الله رؤوف بالضالين.

عملنا بتعاليم النبي فيما يخص النساء. نحن نعلم أنه ليس لهن ورع. عقولهن أحيانا مدنسة أكثر من أعضائهن التناسلية. متمسكات كثيرا بأشياء هذا العالم، إنهن لا يعشن إلا في الابتذال، غير مباليات بيوم البعث. رسولنا، كما حكمتنا، حطّهن في دورهن الطبيعي: الإنجاب والتكفل بالبيت. إذا كن مكلفات بتنشئة أطفالنا فإنهن لا يربيهن. نحن نحرص على أن ننزع بسرعة من حجورهن ذكورنا الصغار الذين يرون أنفسهم، منذ خطواتهم الأولى، مدفوعين إلى

الذهاب خارج البيت يتدربون مع أقرانهم على لَعب الفحولة.

إذا كنا نحرص على أن تحترم زوجاتنا وبناتنا طقوسنا الدينية، فإننا بالمقابل لم نحاول أبدا أن نفرض عليهن عقيدتنا. نحن لا ندري كثيرا ما تقترحه امرأة راكعة.

أجدادنا حذرونا: بنت جميلة هي مصيبة. توصلنا إلى أن شرف عذراء يفرض أن تخبئ محاسنها إلى يوم زفافها، وابتداء من هنا ستخصصها لزوجها. نحن نعلم أخطار الولع ونوصي الشاب المتزوجين أن يأخذوا نساءهم أثناء الليل وفي الظلام وأن يتجنبوا تلك الألعاب الفاسقة التي تُضل وتُذل. نحن نراقب بصفة مضيقة سلوك المراهقين الذين تزوجوا، وإذا كنا ننكدهم غالبا بخصوص عودتهم المتسرعة غير العادية إلى بيوتهم فإن ذلك ليس للسخرية منهم أبدا. على كل، انشغالنا هو أن نفهمهم أن الكرامة الذكورية تفرض أن الرجل يعرف كيف يخفي، عن الآخرين وقبل كل شيء عن المعنية، أحاسيسه التي تلهمه بها. إنه بالسيطرة عليها وبالسيطرة على النفس يستفيد من اعتبار الآخرين واستحسان الأخرى. عليه، ووحده، ولكن خاصة في صحبتها، أن يعرف كيف يتجاهلها، يوبخها، وإذا دعت الضرورة يهينها. رجل يسقط في فتنة زوجته هو رجل ضاع. عرفنا كثيرا من أولئك، شجعاناً صاروا جبناء، أسخياء بخلاء، حكماء شياطين، شحيحين كرماء، متزنين متهورين. وأكثر.

النساء شيطانيّات.

زوجة محترمة لا يجب عليها أن تستعمل الحيل لتهييج حب سيدها. يجب عليها أن تبقى طبيعية، أن لا تتزين إلا بالحلي، رافضة كل تلك المواد التي تقنع الوجه، تضيء الوجنتين، تكبر العينين، أو

تحيي لون الشفاه.

المتحضرون كانوا خبراء في فن التحول. نساء المجذومين اللائي يشتغلن عندهن يسحرهن منهن تحولهن. كن يرينهن، وهن يخرجن من السرير منفوشات الشعر، الوجه مضجر، العيون صغيرة، الخدود متكتلة، الشفاه سميكة. ثم يكتشفنهن، بعد ساعة، ساحرات وحيويات يصدرن إليهن نصائحهن قبل أن يصْفقن الباب.

المتحضرات يكرهن أن يبقين في البيت. يردن أن يخرجن ويعرفن العالم. إنهن يحببن أن يسهرن. بعضهن، مثل أزواجهن، يعملن خارج البيت من الصباح حتى المساء، تاركات المنزل والأطفال من أجل أجرة بينما راتب الزوج كبير. ولكن هناك ما هو أخطر. كثير منهن يرفضن أن ينجبن، ويتناولن الأقراص التي تمنع آثار الفعل الجنسي من غير أن يجرؤ القرين على تطليقهن.

أطفالهم القليلون، لأنهم متروكون لأمرهم، كثيرا ما يصبحون صعاليك. كانوا وقحين ولا يخشون الكبار الذين لم يكن تقريعهم إياهم إلا ليحرضهم على الرد. الآباء كانوا لا يدللونهم فقط ولكنهم كانوا يظهرون غضبهم على من حاول تصحيحهم.

نحن، ليس عندنا شيء من ذلك. نحن نلتزم بالاحترام المؤدى للسن، وأي رجل يستطيع أن يؤدب طفلا آخر على مرأى من والده من غير أن يتأثر هذا الأخير أو يجد ما يقوله.

في السابق، كان أولئك الصبيان الرهيفون يهجرون الفيلات الفخمة ويغامرون نحو بيوتنا المتواضعة. كانوا يرتعدون فرحا من اكتشافهم نمط حياتنا الغريب. أطفالنا نحن، قبل كل شيء حذرون، لا يتأخرون في الاتصال بهم. الصعوبات اللسانية يتم تجاوزها بيسر،

وتنشأ علاقات وطيدة، لأن الأصدقاء الجدد يصلون غالبا وفي أيديهم شيء يؤكل يترددون في تناوله أو وجيوبهم مليئة بالحلوة التي تبدو لا تغويهم. كان أبناء القرية يتعجبون من السهولة التي يبذر بها أولئك الأطفال زادهم. كانوا يعطون بلا مبالاة وأحيانا بارتياح، بينما أطفالنا نحن كانوا يتعرضون لأنواع العنف الشديدة من غير أن يتنازلوا عن قطعة من كسرتهم أوعن حفنة من تينهم المجفف. الذين يتزاحمون حول طبق الكسكس المشترك كانوا يجهلون أن رفاقهم يُعنّفون ويعاقَبون إن لم يتموا محتوى صحنهم. هكذا عرف أطفالنا استثمار تلك الصداقات. ولكن ذلك لم يتأخر عن التدهور. ألعابهم كانت مناسبة لغارات متوالية، فيعود الصغار المتحضرون إلى بيوتهم ووجناتهم مخدوشة، الأنف دام، العين متورمة، والأذرع كلها كمدات زرقاء. فمنعت عليهم الأمهات إذاً الاتصال بالسكان الأصليين. الأمر الذي حرض أطفالنا على خرق السياج من أجل القيام بزيارتهم. جنّد بعض الشبان من المجذومين ليكونوا حراسا وأُعطوا زيا يشبه في كل النقاط زي حارس غابتنا. هكذا، انتهت بالسبة لأطفال القرية تلك الوفرة الغذائية.

الكثير من المتحضرين بعد استقرارهم طلبوا توظيف شغالات من بين زوجاتنا أو عذراواتنا. شرحنا لهم بلطف أننا لن نستطيع قبول رؤية زوجاتنا، مقابل أجرة، يتحولن خادمات. اعتقدوا أنهم سيقنعوننا عارضين أجورا مرتفعة. بعضٌ منا شرح لهم:

ـــ بالرغم من حالتهن، فإننا نحرص على حفظ كرامة إناثنا. نحن لا نجهل أنهن لا يقاومن إلا قليلا الأذى المجاني ولا الإغراءات المادية. يحدث لنا أن نعنفهن، ولكنهن لا يشكلن منبع حياتنا وما هو

لين في إيماننا. لن نرضى بأن نراهن راكعات عند أقدامكم ينظفن أرضيتكم.

لكننا عاينا، في الأيام التالية، على دهشتنا أن كثيرا من المجذومين وقعوا تحت اقتراحات المتحضرين وقبلوا أن يكتروا لهم نساءهم وبناتهم.

ذلك سبب لنا متاعب كثيرة.

نحن نعيش في بؤس، ولكن بشرف. غير أن المجذومات المسخرات، مستغلات سذاجة سيداتهن، لم يتوقفن عن التشكي والتباكي. بدأن باستجداء الخبز اليابس لإطعام إخوانهن أو أطفالهن الكثيرين كما قلن، كأنهم يموتون جوعا، بينما كان ذلك لتسمين دجاجهن حتى يكبر بسرعة. ثم ورثن ملابس الأزواج القديمة وبعنها بربح. وكذلك أجهزتهم المستغنى عنها.

لم يتأخر المتحضرون في أن يعتبرونا طماعين وبخلاء. وذلك ما عزز احتقارهم إيانا. عاينت امرأة من نسائهم، مرة، اختفاء سلسلة ذهبية واشتبهت في البنت التي تسخرها بأنها هي التي سرقتها. قدمت شكوى لدى درك سيدي بونمر فجاءوا وفتشوا بيت أولياء البنت عن آخره.

تقدمنا نحوهم مغتاظين. شرح لهم أكبرنا هيئة أننا، للذاكرة القبلية، لم نعرف لا السرقة ولا الاختلاس.

فأجابونا.

ــ هناك شكوى سجلت، يجب أن نقوم بتحرّينا.

ــ إذا كانت تلك المرأة تصر على أن شيئا ما قد سرق لها فإننا نحن جميعا هنا، متضامنين، مستعدون لتعويضها.

ـــ هذا أمر لا يقبل. يجب أن نقوم بالتفتيش.

كفل إمامنا شخصيا شرف العائلة المتهمة.

لكن الدركيين العنيدين لم يعملوا إلا ما في رؤوسهم. كانوا اكتشفوا السلسلة في عمق وعاء.

الفصل الرابع عشر

ـــ كفى مسخرة. أنتم تكادون توقظون صغاري. الأمر الذي لا يمكن إلا أن يطبخكم. انظروا من حولكم. من هم أقل صفاء يعترفون أنه لن يكون هناك مقر آخر للولاية.

تقدم إمامنا، الذي اعتقدناه أقل شجاعة، نحو عمر المبروك.

ـــ هذا المكان يحتضن قبر ولينا المؤسس، والذي منذ أكثر من قرن يواصل سهره علينا. لقد حمانا دائما.

ـــ حماكم؟ ومما ذا إذاً أيها المساكين؟ عرفتم البرد والأوبئة، الجفاف والجراد، الحرب وعذاباتها، الجوع أو المنفى.

ـــ ولكننا عشنا دائما.

كان يمكن لضحك عمر المبروك أن يفزع طيور يوكليبتوساتنا.

ـــ ذلك كله تطيرٌ. أنتم ما زلتم تعيشون في زمن وادي بصل

البر القديم والخطافة. وأنتم تعلمون أنه ليس سوى كروم وأقبية ذات بخار عفن لا يطاق.

ـــ أوصى ولينا، قبل موته، بأن لا نبني أبدا على أقل من مائة متر من الزيتونة.

ـــ سأكون من الآن فصاعدا الولي الوحيد الذي تبجلونه. وتستطيعون أن تصدقوني، لن تخسروا في البدل. سأخرجكم من الظلمات لأحملكم نحو النور.

استقام عمر المبروك بكامل قامته.

ـــ أنتم تخرأون علي بمعتقدات من عصر آخر بينما أنا أقتل نفسي من أجل سعادتكم، يوميا، من الصبح إلى المساء، في كل دقيقة تمر، إلى حد أنه لم يعد لي وقت لأرى أطفالي ولا أن أزور نسائي.

واصل.

ـــ هنا، في هذا المكان، أبني مدرسة بطاولات ومصطبة، وصور في الجدران. ولن تستطيعوا ألا تأتوا بأطفالكم، لابسين مآزر حاملين محافظ. وبأيديكم ستدفعونهم نحو طريق الإنكار الذي من خلاله، ناسين جدودهم، سيصبحون حلفاءنا. سيتعلمون لغة الروامة والرياضيات التي تسمح بالحساب من غير استعمال الأصابع. وعلى خارطة العالم سيحددون المدن الأكثر شهرة. ويستطيعون أن يعينوا أسماء الغيوم ويفهمون أنه ليست الصلوات ولا الأدعية هي التي تسقط المطر. وسيتدربون على الموسيقى والغناء، بالسبة إليكم ردة، ويتعلمون ألف شيء آخر تشكون حتى في وجوده. وكما أولئك في المدينة، سيدخلون الجامعة، ويرقصون مع البنات، يحصلون على الباكالوريا ويدخنون بعض التنفيحات. وفي الجانب سترتفع سوق

كبيرة والتي تقترح عليكم رفوفها سلعا وافرة. وتذوقون موزا قادما من بلاد الزنج؛ وسيرضع أطفالكم حليبا حُوِّل بشكل عجيب إلى غبرة، والذي يخلط بالماء يصير سائلا؛ مواد الزينة ستغوي عذراواتكم؛ اللعَب ستسحر أطفالكم؛ نساؤكم سيحصلن على ماكينات الغسيل وأنتم ستدفعون غاليا ثمن تلك الآلات التي تُضحك وتُبكي وشيئا فشيئا تنوب عن حكاياتكم. وبعيدا قليلا سينشأ البريد الجديد حيث يتصرف ولد علي كرئيس والذي يستطيع، إن كنتم ترغبون، أن يجعلكم تنصتون لأصوات بناتكم في المهجر وراء البحر. وفي المقابل بالضبط، مستشفى يستقبل نساءكم الحوامل، يفصد مواليدكم الجدد ضد كل الأمراض الماضية والقادمة، ويقدم مجانا للجديدات من المتزوجات أقراصا تعقم. أولئك الذين يعانون من أمراض المعدة يمكنهم أن يذهبوا ليعالجوا النكبات التي يسببها لهم مزاجهم الحزين، والذين لهم مرض السكر لن يأكلوا اللوز المر. نزودهم بلا حساب بالإبر التي تخفف الآلام، وتجعل الشيوخ خفيفي الحركة، وتُرقد في النهار وتوقظ في الليل أو العكس، كما نريد. وإلى جانب هذه المؤسسة سترون دار عدالة يكون فيها القاضي يحقق بالكتابة في كل أشياء هذا العالم، ويصفي بعدل كل نزاعاتكم، مهما تكن معقدة، وسيعرف، بشكل مفضل، كيف يحل محل جماعتكم المنحلة. هاه، قولوا لي ما ذا تفكرون؟

كنا نعلم أن جورجو وولد علي يمونان عمر المبروك، وكذلك محمد الذي كان يحتفظ بأمل العودة إلى منصب رئيس البلدية. نحن تعلمنا كيف نحتاط من المجذومين. إذا كان التحاق هؤلاء صدمنا فإنه لم يفاجئنا. ولكننا اكتشفنا بذهول أن بعض أبنائنا

انسحروا بمشاريع الوالي.

ــ بمرسوم استثنائي سأعلن المجذومين، الذين يلتحقون بالورشة، متعافين.

بإشارة من عمر المبروك بدأت الجرافات تشخر، ترسل إفرازات من الدخان الأسود، ثم تقدمت ببطء. تراجع الإمام مذعورا إلى الوراء وهرب مرددا لاعنا.

ــ عليك اللعنة يا ابن الشيطان.

أعطت أصداء ضحكات الوالي انسحاب الإمام إيقاعا.

توجه الوالي نحو محمد وأخذه من ذراعه.

قال له.

ــ أعاين بسعادة أنك بدأت تتعقل. وبشيء من الحماس ومن المثابرة تستطيع أن تعود إلى منصبك وفتح قهوتك. كان في إمكانك أن تعلم أن مواجهتي نهايتها الخسارة. نصف السكان مستعدون لاتباعي. أعتمد عليك في إلحاق المترددين. لا تنس أنني حقود. لم أنس أن إمامكم غير المسامح منع دائما أبي من دخول المسجد.

تأخر عمر ليواجهنا:

وقال لنا:

ــ لا تقلقوا. فكرت كذلك في بناء مسجد حقيقي، بصوامع توائم والتي إلى أعلاها يصعد مزيان وأمزيان ليناديا معا إلى القداس. وتتوفر على قاعات حمامات حيث يجري الماء الساخن والبارد. زرابٍ سميكة من الصوف ستداعب أرجلكم العارية. ولن تكونوا مضطرين إلى تحمل ذلك الأدرد العجوز الذي تجعل خطبُه

لعابه يسقط على عمائمكم المبجلة. سأوظف إماما حقيقيا مكونا في أحسن الجامعات، له في المقابل أجر، والذي بلاغته الشبيهة بالفضة الناصعة ستكون لكم أسحر من عملاق بنت الرباط.

ختم عمر المبروك، متأكدا من أنه كسب الجولة.

ـــ فليعد إلى بيوقم القديمة من يريدون إدارة ظهورهم للتقدم. نحن، هنا، نحتاج إلى العمل.

نشط المجذومون في الورشة يجذبهم الوعد بأنهم سيفضّلون في الحصول على سكن في البنايات الجديدة.

ـــ يجب أن تفهمونا: نحن لا زلنا نبيت تحت الخيام، في ثلج الشتاء أو غبار الصيف، بلا حماية حتى من اليوكليبتوس.

فأجبناهم:

ـــ لا تلومون إلا أنفسكم. بيوتنا لبساطتها يمكن أن تبنى في يومين. كل مواد البناء متوفرة، واقترحنا عليكم مساعدتنا. ولكنكم فضلتم تصديق الوعود الكاذبة. لدى وصولكم كنا نشك في أنكم تحملون معكم شرا أخطر من الذي يقال لكم إنكم مصابون به. ومع ذلك كنا نصدق الفضائل العلاجية للأخوة.

بعض من أبنائنا وجدوا أنفسهم كذلك في الحقول المسوّاة، وقد غواهم الحصول على عمل قار.

ـــ اختفى الزيتون، فما ذا كنا سنفعل بنهاراتنا؟ وكيف نضمن العيش لأولادنا؟

وقعت حوادث كثيرة في الورشة. كثير من الأشخاص ماتوا. العمال هجروا المكان، ولكن عمر المبروك كان جلب زمرة من الدرك وأجبرهم على استئناف العمل.

تم تزيين حجرة المحول الكهربائي الصغيرة بأعلام مصغرة، ودعانا عمر المبروك إلى حفل تدشين التوتر. حضر بخطوات رشيقة، مصحوبا برهط من المتحضرين. كان على مزاج رائق.

وقال.

ـــ وعدتكم بأن أخرجكم من الظلمة لأحملكم نحو الضوء.

وأنزل المقبض تحت تصفيقات رفقائه. اشتعلت قُبيبات المصابيح.

في النورانية المحيطة، انتزع ذلك البصيص غير المجدي من بعضنا عبوس سخرية.

ـــ فقط؟ نحن الذين كنا نعتقد أن الأرض ستنقلب فنضطر إلى أن نمشي على رؤوسنا برغم تحفظنا المضروب به المثل.

أخطأنا التقدير. ذلك الوضوح المضاف إنما كان لتُقلب حياتنا اليومية، كان ذلك أكثر مكرا، أكثر إتلافا من عفونة جفاف اليوكليبتوسات التي تنفسناها.

لاحظ لنا.

ـــ انتظروا الليل.

فطلب الحداد.

ـــ فيم سينفع ذلك؟ من عادتنا أن نعود إلى بيوتنا لننام بعد صلاة الغروب. هل لمساعدة الكلاب على تتبع بعضها.

ولكننا كنت نتأخر إلى المساء، مضحّين للجديد، لنبدي أننا مسحورون أمام تلك الهالات الباهتة التي تنزع القناع عن الليل وتترك كل الأشياء معروضة بلا حياء. كنا نشعر بحرج من يكتشف بغير قصد مشهدا حميما. لم نكن نجرؤ على النظر إلى بعضنا. الألوان

المخففة للأشياء كانت تضاعف من تضايقنا، وكنا نتعجل على العودة إلى بيوتنا.

تلك الإضاءة غير المعتادة خلخلت حياة العصافير القليلة التي، لتجذرها مثلنا في هذا المكان، رفضت أن تهاجر بالرغم من اختفاء معالقها التقليدية. ولأنها لم تعد تفرق بين الليل والنهار فإنها كانت تستمر في الغناء بلا كلل إلى أن تسقط إعياء. ابن الحداد البكر تكفل بجمعها. كنا نعتقد أنه يستغل النعمة غير المتوقعة ليعرضها على أصحاب السيارات على حافة الطريق. ولكننا تأثرنا لما عاينا أنه كان يبتعد وسط الحقول كي يدفنها في سرية. ثم يخرج المراهق مقلاعه ويتخذ من تلك المصابيح، المركبة على عكازات، أهدافا له. رمياته الدقيقة أعمت تلك الأضواء واحدا بعد آخر.

جاء عمر المبروك بعد معاينته الخسائر، متبوعا بحارس الغابة الذي أصبح يجرجره خلفه في كل مكان، يتحدى بهيئته المشبوكين إلى التينات.

ـــ كأنما يعرف هؤلاء القذرون كيف يخرجون من خرائهم. أعترف أني أخطئ حين أتحامل هكذا. على كل، أنتم لستم سوى كمشة من العصاة. يمكنكم أن تواصلوا قرفصتكم في عروتكم، أغسل يدي. الأشياء ستتم من دونكم.

ثم التفت إلى رابح:

ـــ سترمي لي بهذا الصعلوك في الحبس لإتلافه أملاكا عمومية.

ـــ ولكن ليس هناك سجن.

ـــ أنت أيضا تريد أن تقوم بدور المتردد؟ مجموعة من

الشرطة ستنزل هنا، وتستطيع أن تبدأ من حينها في تسجيل محاضر للحمير التي تدخل إلى الطريق العمومي. اعلم أن أولى بناية ستراها تصعد هي محافظة شرطة. في قبوها الساشع تصطف مجموعة من الزنزانات. وفي انتظار ذلك، سيذهب الصعلوك الصغير ليلتحق بالمحامي الصغير. أكلفك بحراسته.

اعتقدنا أننا تخالصنا، ولكن الخراب استمر من غير علم منا. بدأت خيوط ثنائية تزحف في تكتم بالغة الديار واحدة بعد أخرى.

ابن محمد، الذي كان له شارب أبيه إضافة إلى الحس التجاري، استغل استلام آلة القهوة التي وعده بها الأجانب، أخذ على عاتقه المحل الأبوي المتروك منذ إغلاقه بقرار ولائي وحوله رأسا على عقب. وضع ثلاجة لبيع مشروبات باردة لم تكن معروفة إلى ذلك الحين، ومصْرفا يمكّن من الاستهلاك وقوفا لإجبار الزبائن على أن يسرعوا. استبدل الحصائر بطاولات وكراس. وهكذا صادر تلك التي كانت متوفرة تحت التينات مرغما إيانا على افتراش التراب. كان لا بد لنا من احتجاجات شديدة لدى محمد كي تعاد إلينا. ولكن الرجل الشاب رفض أن يكلف نفسه ذلك. بقيت متروكة للرطوبة الليلية، ولغبار الرياح، ولألعاب القطط التي كانت تأتي تشحذ فيها مخالبها. كانت تحولت سريعا إلى حطام.

في إعادة الفتح، سمح ابن محمد برغم أنفنا، بألعاب الكارطه والدومينو التي استهوت مراهقينا ساهرين إلى وقت متأخر من الليل. ولكي يشد الزبائن، الذين كانوا لا يزالون على عادة يا الله الرقاد، وضع على مرفع جهازا يُضحك ويُبكي.

الذين كانوا يرتادون المكان، أكثر فأكثر عددا، لم يعودوا

يستطيعون النهوض لأداء صلاتهم الصبحية. الكثير منهم كانوا يعملون في الورشة حيث دقة ساعات العمل جعلتهم يتخلون عن التمارين الدينية.

زيّن جورجو أخيرا حانوته بلافتة مضيئة إلزامية وتجهز بجهاز يصنع الثلج المسكّر الذي ولع به أبناء المتحضرين. وبعد أن ذاق منه أبناؤنا بحذر تعودوا عليه هم أيضا. ولأنهم لا يأملون في الحصول منا على ما يشترون به الحلوة الملحوسة فإنهم كانوا ليلا يفتشون جيوب جلاليبنا. حصل جورجو في بضعة شهور على ثروة وبدأ في بناء بيت من الآجر والخرسانة على أرض أجداده واسعة بقدر تشوهها. بدأت البناية الكابوسية تقض ليالينا. حاولت بعثة من أقاربه المجاورين أن يعقّلوه.

ـــ دارك تصعد وترتفع، و لم تنتهِ بعد. لا يجب عليك أن تبني هكذا في الارتفاع. شرفاتك تطل على أحواشنا وتستطيع أن ترى كل ما تعمله عذراواتنا ونساؤنا. أوصى الرسول بالتميز بالورع وليس بالثروة.

أجابهم جورجو:

ـــ الغيرة هي التي تجعلكم تتكلمون هكذا. منفيا، نسيتموني. تاجرا، احتقرتموني. ثريا، غرتم مني. سأضيف طابقا آخر لأتحداكم. من جهة أخرى، أعلمكم أني لن أعطي الديْن لأي واحد منكم. يجب عليكم أن تدفعوا مقابل مشترياتكم في الحين نقدا.

اتصل المشتكون بالجماعة التي، بعد مناقشة طويلة، عينت عضوين من مجلسها للتفاوض مع الحوانتي. لكن هذا الأخير استقبلهم بغطرسة.

ـــ اجتماعات جماعتكم غير شرعية وقراراهما لاغية وباطلة.
وإذا أعلمت الوالي فإنه سيعاقبكم على إعادة تشكيل رابطة حلت.

لإحساس جورجو نفسه وحيدا، وقد صارت إقامته جاهزة، فكر في اتخاذ امرأة. لم نجد أي غضاضة في أن يتكفل بأرملة وحيدة ترطب قليلا من نهاية حياته مفرجة عنه تفاهة الأشغال اليومية التي صار يتردد في تأديتها.

ـــ يجب أن يكون مل تحضير وجباته صباح مساء وكنس بيته وإصلاح ملابسه وغسلها.

كثير من المترشحات، اللاتي يغويهن ثراء الحوانتي، وقفن في الصف. ولكن جورجو لم يكن يرى الأمور كذلك. كان يريد عذراء أقل من عشرين سنة. نبهناه إلى سنه المتقدم ورأسه الأشيب.

ـــ الله يعلم أننا منذ عودتك من الغربة لم نكف عن حثك على تأسيس بيت. رفضك المتكرر جعلنا نعتقد أنك مصاب بعجز ما. فات الوقت، واليوم لم يبق لك سوى أن تفكر في ضمان إقامتك في الآخرة.

ـــ الحياة بيد الله، ولا يملك أحد تحديدا لنهايتها. وفي ما تبقى، أستطيع أن أطمئنكم على أني لم أعان أبدا من أي إصابة. هناك، في فرنسا، زنيت بشكل أصخب من خنزير هائج. أحس أني ما زلت في قوة العمر وقادرا على أن أخلف ذرية. زوجتي القادمة مضمون لها العيش في اليسر.

بالطبع، لا أحد منا قبل أن يلبي نزوة الحوانتي الهرم. ولكنه وجد مجذوما جشعا اقترح عليه عذراءه، مقابل تعويض هائل، بدون شك.

للخبر الذي أشعرنا بالعار، اجتمعنا حول الإمام.

ـــ هذا الرجل، أكثر من عمر المبروك وأكثر من المجذومين وأكثر من أبنائنا المتنكرين، سيجلب على هذا المكان كل شرور السماء والأرض.

أبدى شيخنا صرامة.

ـــ أرفض أن أقرأ الفاتحة من أجل هذا القران غير الطبيعي.

هز جورجو الكتفين.

ـــ لست في حاجة إلى بركاتك. سأذهب إلى البلدية لأتزوج مدنيا.

وقع العرس برغم أنفنا.

لا أحد منا حضر. هذه الحكاية انتهت مأسويا. المرأة الصغيرة التي نشأت في ضواحي المدينة، بدأت تقلد سلوك المتحضرات. كانت تلبس وتتزين مثلهن، ومثلهن كانت تخرج عارية إلى الشارع. وبدأت تقوم بزيارتهن، وتتأخر أكثر فأكثر. المجذومون المشغّلون كحراس في حي الفيللات أشاعوا عنها أنها تقابل أيضا عزابا. شيئا فشيئا تجرأ أولئك الرجال على الالتحاق بها في بيتها. ذات يوم، وهو يعود إلى منزله بالصدفة، فاجأ جورجو أحد عشاق زوجته في خضم العملية. هذا الأخير لم يجد أي صعوبة في خنق الرجل العجوز. رفضنا أن نشعر محافظ الشرطة الذي كان نُصّب. وعلى بُعد خطوات من ساحة التين هيأنا مقبرة جديدة حيث دفن جورجو.

الفصل الخامس عشر

بمجرد أن صارت إقامته جاهزة، فإن عمر المبروك استقر في زيتونة بصورة دائمة.

قال لسكرتيره.

ـــ في الواقع، أخطأت لما احتقرت هذا المنصب. أنا مرتاح جدا. ولأن المكان منسي فإنه لا أحد من المبْرَدين سيأتي ليدخل أنفه في شؤوني. إن العنيدين المحتملين سيضلون الطريق. أعطيت مصالحي أوامر بألا يضعوا أي إشارات مرشدة. سأكون في سلام. المتحضرون الذين وظفتهم مهما تكن المناصب التي يشغلونها فإنهم يعرفون أنهم ملزمون بأن يسمعوني وأن يطيعوني. اخترتهم على أساس درجة حرمانهم العليا. كانوا مشردين في شوارع العاصمة، جيوبهم مليئة بالشهادات وقلوبهم بالحقد، مرات بلا عمل ولكن بلا سكن دائما. بعضهم موضوعون في مكاتب، يتجاهلهم الجميع منحنون لنسيان

معرفتهم؛ وأولاد الآخرين، محشورين في أقبية، لا يرون الضوء. أعطيتهم فيللا مكيفة ومنصبا على قياس طموحهم. إنهم لا يريدون إضاعة هذه ولا ذاك. لن يتخبطوا. ولم أتوان في رصد المجذومين الأكثر حقدا لوضعهم في خدمتي. إنهم سيعرفون كيف ينكدون عيش القرويين من غير أن أشجعهم. بالطبع، لم أنس أن أستنجد بجميع زبانيتي القدامى في الجبل. جاءوا جميعا. هؤلاء الأرواح الصافية المعذبة لهم عادة حماية نومي وطيشي. أعرف أني سأكون مرتاحا. لا أحد يمنعني من حك قُبلي عندما أخرج من سريري، وأبول على شجرة الورد التي تزين درج مدخل إقامتي، وأخرأ نائما أو أقذف على بعد متر خنونتي التي تسد منخري. سأستعيد عادتي الفاجرة وأجلب إمبراطورات العاصمة اللائي كن يجعلنني أنتصب ولكنهن يرفضن عروضي خوفا من الشبهة. سيكنّ سعيدات. بعيدا عن اختلاط المدينة، هنا، بين الفلاحين، سيحسبن أنفسهن ملكات، وينتشين أمام المشهد الرعوي، وحين يأتي الليل يكنّ في تلبية نزواتي. سأتصرف مثل باشا، أسن قوانين على قد قامتي لأعطي نفسي حق خرقها في الغد، ولألزم الفلاحين بارتداء أحذية كي يمشوا في الشوارع أو أغير عدد الصلوات اليومية ومواقيتها.

بعد عمر المبروك استقر الدركيون، ثم الشرطة، ثم ضباط القطاع العسكري، ثم مسئولو الحزب، معلمو المدارس، أطباء المستشفى وممرضوه، حراس السجن، إمام المسجد الجديد، وقابضات صناديق السوق الكبيرة.

هجر ولد علي إلى السكن في بيت واقع أعلى البريد الجديد. كان له هاتفه وشبابيكه المرقمة. ولأنه كان مكلفا بعدة موظفين فإن

لم يعد من الوقت ما يسمح له بأن يكتب لنا رسائلنا. البوسطاجي الجديد، من المجذومين، رفض أن يسلمنا بريدنا لأنه لم تكن لنا عناوين.

ـــ لا بد لي من الاسم ومن رقم الشارع.

لم نعد نتلقى أخبار أبنائنا المهاجرين في فرنسا ولا حوالاتهم.

في النهاية، لم يستطع محمد أن يعود رئيس بلدية. عمر المبروك فضل عليه العضو السابق في سيدي بونمر.

ـــ الامتياز الوحيد له هو أنه لم يولد بينكم.

هذا الأخير ملأ نزل المدينة شبانا من مواطنيه كانوا يستقبلوننا بعجرفة ويطلبون منا أن نبرر إقامتنا.

ـــ أجدادنا جاءوا منذ قرن ونصف واستقروا هنا.

ـــ لا بد لي من وصل كهرباء أو هاتف.

ذهب أطفالنا الواحد بعد الآخر ليستقروا في المدن الجديدة. وإذا كانوا في البداية غالبا ما يعُودوننا فإن زياراتهم بدأت بسرعة تتباعد. كان علينا أن ننفصل عن معزاتنا لأنه لم يعد أحد يهتم بها. مكننا ذلك من بعض وسائل العيش. ولكن هذه الوسائل انتهت إلى النفاد. أبناؤنا صاروا يتظاهرون بأنهم يجهلون أننا في حاجة. هم أنفسهم، بالرغم من أنهم يتلقون أجورا، لا يكفون عن التشكي من غلاء المعيشة، من ضروريات لامعقولة لأطفالهم الذين يذهبون إلى مدرسة الدولة، يريدون أحذية وألبسة جديدة، كثيرا من الدفاتر ومن الدراهم لشراء الحلوة مثل أطفال المتحضرين.

كما في الأعوام القديمة، بعض منا عرفوا الجوع. ولكن كان يجب عليهم أن يحرموا أنفسهم بينما بعيدا عنهم قليلا، في السوق

الكبيرة، تتراكم أكياس الفرينة.

نحن نشأنا في الفقر والكرامة، وأولئك الذين لا يجدون ما يأكلونه كانوا يرفعون قبضة الشرف ليخفوا ذلك. وللحظ، فإن ابن جلول كان يسهر. بمجرد خروجه من السجن ترك مقلاعه واشتغل بإعادة بيع المواد ذات الندرة التي يحصل عليها من السوق الكبيرة من تحت اليد.

وطمأننا.

ـــ يكفي الشراء والتخزين.

ولأن أباه كان مات بدوره، حزنا على بطالته بعد أن لم يستطع أن يتحول إلى الحملاج الأوكسيهيدروني، فإن جلول حول المحل الموروث إلى مخزن.

التجارة غير المسبوقة ضمنت له بسرعة ثروته. ولكنه لم يبحث لا عن بناء منزل في الأعلى ولا عن هجرة إلى المدينة الجديدة. كان يموننا بسخاء من هذه المواد التي كان ظهورها على رفوف السوق الكبيرة تثير هجومات كانت ستقتل عجزة مثلنا. ولم نكن نفهم حينها لما ذا كانت كل السلع تفقد.

ـــ هل لأن تقاضي الأجور هو الذي حول الناس إلى الشراهة؟

ابن جلول لم يقبل أبدا منا أي سنتيم.

ـــ أعوض ذلك كفايةً من عند الآخرين. لعلني لذلك غير مرتاح.

استدعى عمر المبروك محافظ الشرطة بمجرد وصوله.

قال له.

ــ أعتمد عليك من أجل بسط النظام والأمن. يجب أن تحذر من سكان هذه القرية. إنهم مؤذون وماكرون. لا تخش أن تعاقب. أنصحك بأن تبدأ بتخليص المدينة من كل الشبان البطالين الذين يتسكعون. رفضوا أن يشتغلوا في الورشة ويقضون يومهم في اختلاس النظر إلى أرداف قابضات السوق الكبيرة

ــ كيف العمل؟

ــ مدير السجن الذي لا يدري ما ذا يفعل بموظفيه يكون سعيدا باستقبالهم.

ــ بما ذا نبرر توقيفهم؟

ــ ستجد. إنها مهنتك.

بدأ رجال الشرطة في مطاردة الفتيان العصاة. أوقف الأولون بدعوى التصعلك.

ــ ليس لكم عمل ولا مداخيل معروفة.

وأُدخل الآخرون بسبب التغيب غير الشرعي.

ــ أنتم تتجولون في الشوارع في ساعات العمل من يوم مفتوح. كان يجب عليكم أن تكونوا في مناصبكم. أنتم إذاً في وضعية غير قانونية بما أنكم لا تتوفرون على ترخيص بالغياب ممضى ومدموغ من مسئولكم الأعلى.

الأخيرون وجدوا أنفسهم في الحبس بسبب قطعهم شوارع من غير أن يعبروا من الممر المحدد للراجلين.

استقبل عمر المبروك مسئول الحزب.

أكد له.

ــ كثير من العمل ينتظرك هنا. نعاج هذه القرية لم يؤخذ

بيدها أبدا.

عيّن الحزب، حسب كل جزء من البناية، رئيس مجموعة منازل مكلفا بتنظيم توزيع الماء، إطفاء الأضواء، الأيام التطوعية، إحياء الأعياد الشرعية وقناعات القاطنين. ذات يوم علّق، على أبواب البنايات الجديدة، منشورا يحدد رسميا بداية رمضان، متأخرا عن رؤية الهلال الذي شاهدنا يوما من قبل، وكنت أنا شاهدا، أستطيع أن أؤكد لك برغم بصري الضعيف. ظهر فجأة فقيه غريب في الأجهزة التي تُضحك وتُبكي ليؤكد قطعيا أنه لا يمكن رؤية كوكب لم يظهر بعد. إلا أن بعض سكان المدينة الجديدة جاءوا، مضطرين، خلسة يستشيرون إمامنا فقال لهم:

ــ لما قررتم مغادرتنا حذرناكم من أنكم اتخذتم طريقا سيئة. لم تسمعوا. نستطيع أن نقول لكم اليوم إن عيوننا المتعبة خدعتنا. لسنا متأكدين من شيء. الله وحده مالك الحقيقة. ولكنه لن يعاقبنا على أننا صمنا يوما من قبل.

ــ إنهم يشهدون لنا أن حساباتهم صحيحة وإن أي فارق لم يحدث منذ خُلق العالم.

ــ أنتم أحرار في اتباع تعليمات أولئك الرجال الذين صاروا متغطرسين لأنهم يعتقدون أنهم سيطروا على معرفة الروامة. وبالنسبة إلينا فإننا نواصل طاعة تعاليم الرسالة.

ــ ما العمل؟

ــ حذرناكم، وأنتم ذاهبون، من أنكم ستحكمون على أنفسكم بالعيش في الاضطراب.

اختارت الأغلبية، منقبضين، أن يبدأوا الصوم مثلنا. أنذر

عمر المبروك. دخل في غضب جنوني.

ـــ إنها الفتنة.

أخذ هاتفه ونزل على مسئول الحزب بالتوبيخ.

ـــ كنت مع ذلك حذرتك من أن عقول هؤلاء الفلاحين مليئة بالتطير مثل قُبْلي. دورك كان أن تسهر على صحتهم الإيديولوجية والأخلاقية.

أرسل عمر المبروك إلى الشوارع فرقا من الشرطة أجبروا المدخنين على التدخين والشمامين على الشمة والشرب على من لم يكونوا ظامئين والأكل على من لم يكونوا جائعين.

شاهدنا المعلم الذي كان جاء ذات مرة يفتح المدرسة رقي إلى مدير. لم يجد أي صعوبة في التفاهم مع عمر المبروك.

ـــ لا تهتم بأبناء الذين طردوك. يستحقون أن يُتركوا إلى مصيرهم المحزن. ولا تهتم أيضا بأبناء المتحضرين. فهم متمدرسون. ستتكفل بأطفال المجذومين والملحقين.

التنقيب الموجه إلى تموين المدينة بالماء جفف عيننا. أخرج غضبنا المفاجئ عمر المبروك من عرينه. تقدم نحونا مصحوبا بجيش من الشرطة.

أكد لنا.

ـــ لم يكن لي خيار. الماء ناقص في هذا البلد، أنتم لا تجهلون ذلك. إنها مسألة أولويات. أنتم أو أبناؤكم المهاجرون. لهم العدد والمستقبل.

كثير منا توفي في تلك السنة. كنت كلمتك عن جلول الحداد. كان هناك أيضا الإمام، الذي صار لا شيء يعزيه منذ فقدَ

الاحتكار الشرعي. ومع ذلك، فإن مربع المؤمنين الذي كنا نكوّنه كان يضمن له أن المسافة التي تفصل بين المسجد الجديد وبيننا تتعب عضلاتنا القديمة، وأننا استمررنا في التردد على القاعة الضيقة التي استقبلت عبادتنا الأولى وأننا نفضل خطبه الغامضة أحيانا، التقريبية غالبا، على بلاغة غريمة البراقة.

ـــ لم يحدث له أبدا أن تعثّر في آية، ولكن كلامه كان أكثر تقعرا من كانون بلا نار.

هذا الأخير كان يلعب بأن يجعل خطاب زميله يضطرب وذلك بأن يعطى زوج مكبر الصوت كل قوتهما واللذين يمنحان منارتي المعبد المتكبر أذنين. فحتى على مسافة، كان صوته الهاذي يجعل وشوشات الرجل العجوز متعذرة السماع. انتهى إمامنا إلى أنْ تخلى عن كل شيء، الحديث والصلاة، اجتماعات الجماعة غير القانونية، كي يلتجئ إلى قراءة الكتاب المقدس. اكتشفناه ذات يوم ممددا على حصير والكتاب ذو الأوراق الصفراء يستريح على صدره. كان ميتا. الرسول نفسه مات. الله وحده الذي لا يموت.

لم يكن هناك خلف. منذ ذلك صارت صلواتنا تؤدى في الفوضى.

كثيرون آخرون غادرونا خلال تلك السنة. ضيوف ساحة التين تشتتوا.

لنقْص الأذرع السليمة، بقيت أراضينا بورا وزيتوننا للهجران. لم يكن هناك سوى موسى ولد عيسى لكي يتكفل. بعد دفن أبيه الكارثي، فإن الرجل الشاب، وخلال أيام كاملة، لعن من غير ملل، عمر المبروك الذي اتهمه بأنه كان سببا في موت الأعرج.

كان يهدد باغتياله. تسلح بسكين، متأسفا على غياب البندقية الأبوية المتنازل عنها للأجانب، وسار نحو الولاية. كنا وجدنا أعباء الدنيا كي نوقفه.

ـــ رجال الشرطة، الذين يحرسون المدخل، لن يتركوك تمر أبدا. ستوضع في السجن مثل كثيرين من مراهقينا.

أغلق موسى ولد عيسى على نفسه في المعصرة ليل نهار، رافضا الخروج. كان يأكل ويؤدي صلواته جنب ماكينته.

نداءاتنا الملحة لم تتوصل إلا إلى أن تجعله يفتح الباب نصف فتحة. ويبدأ إذاً في نقدنا بحدة.

ـــ كفوا عن إضاعة وقتي واذهبوا لتتكلفوا بزيتونكم. أنا بصدد إصلاح المعصرة. سأتوصل قريبا إلى إعادة تشغيلها. أسرعوا إلى جني ثماركم.

الفصل السادس عشر

ها أنا أنهيت قصتي. ما تلا من الحكاية تعرفه أحسن مني لأنك كنت أحد الفاعلين فيها. ولكن لأنهم منعوك من أن تتعلم لغة أجدادك فسأحدث هذه الآلة من أجلك.

سأل عمر المختار سكرتيره.

ـــ من هذا الغبي؟

كنا نعيش منسيين في طرف القرية الجديدة. في يوم من بين الأيام، جاء المحامي الصغير في زيارتنا. كان عليه فرح يقطع مع استسلامنا الكئيب.

قال لنا.

ـــ ابني سيأتي بعد أيام.

هنّأناها بتأدب، بدون أن نظاهر أي تعجب، لأننا كنا نجهل أنه متزوج.

وأضاف بنبرة متآمرة.

ـــ إنه شيئا ما ابنكم أيضا.

أخبرنا أنه رباه على دين القانون ونجح في أن يجعل منه قاضيا.

ـــ توصلت إلى أن يعيّن في زيتونة. ذلك لم يكن صعبا: المرشحون لم يكونوا يتزاحمون. سترون، أشياء كثيرة ستتغير.

لاحظنا له أننا طالما تألمنا من التغيرات التي حدثت عندنا.

ـــ تلك القادمة ستكون نافعة.

هززنا أكتافنا، مقتنعين بأنه لا شيء يمكنه أن يتغير بالنسبة إلينا.

ـــ فات الأوان. لسنا سوى ناجين.

وأضفنا أننا نترع نحو الحذر من رجال القانون.

ـــ لم نعرف أمامهم، ونحن واقفون، سوى أحكامهم علينا بالغرامات التي لا اعتراض عليها.

ـــ يجب الإيمان بالعدالة.

ـــ تجاربنا علمتنا أنها كانت إلى جانب الأقوياء.

ـــ ليس صحيحا. العدالة في خدمة الحق والإنصاف.

ـــ أنت نفسك شرحت لنا بأنك وجدت نفسك منفيا، برغم القانون، لأنك كنت موكلا بالدفاع عن الضعفاء والمحرومين.

ـــ حالتي أنا خاصة نوعا ما.

ـــ على كل حال، نحن اليوم لا نعاني من الظلم. إلا إذا كانت عدالة المصير هي التي تحكم علينا بالخنوع. ولكن قاضيك لا يستطيع أن يفعل شيئا ضد ذلك.

ـــ سيعرف على الأقل كيف يحميكم من تجاوزات عمر المبروك.

كادت ابتساماتنا المتشككة، التي أظهرت له ريبنا، أن تنزل إلى حد عدم اللياقة.

ـــ هذا القاضي، الذي بلا شك هو أصغر وأرهف منك، هل يجرؤ، ما دام أنه ابنك، على مواجهة عمر المبروك؟

ـــ إنه كبير وقوي أكثر مما تتصورون.

حرص المحامي على أن يقدمه لنا بمجرد وصوله.

انتبهنا خلال تبادل التحيات أن الرجل الشاب لا يعرف لغتنا. استعملنا إذاً لغة القرآن.

ابن المحامي الصغير كان يشبه المتحضرين في كل النقاط. ولكن قامته أدهشتنا. كان تقريبا أكثر ضخامة من عمر المبروك. ألححنا على أن نبقيه للعشاء. ولأنه لم تعد لنا أي دابة نذبحها فإن ابن جلول كان عليه أن يتوجه إلى المجزرة ليشتري بعض الأجزاء من لحم النعجة. بدا لنا الكسكس عديم الطعم. لم نكن نستطيع، بكل نزاهة، أن نتهم خبرة نسائنا أو تقصيرهن. كان علينا أن نتوصل إلى وضع غياب طعم مأكولنا المفضل على حساب طريقة الذبح.

ـــ ليس له سوى تفاهة الأيام التي نعيشها. إن الذين رحلوا عنا يكونون بالتأكيد أقل شقاء.

هذه الملاحظة أشبعت سهرتنا حنينا مرا.

حماسة الأب وسلاسة لسانه لم تتوصلا إلى زعزعة تحفظ الرجل الشاب الذي كان بقي صامتا، بل حذرا. يكون تعلم أن يحذر مبادرات المحامي غير المتوقعة.

ألح الرجل الصغير.

ــ إنه يسمعكم. تكلموا، تكلموا

شرحنا له أننا لا نأمل في شيء وأننا نفضل أن نراه يكرس جهوده للدفاع عن حقوق أبنائنا الذين هاجروا إلى المدينة الجديدة بغير وعي.

ــ نحن اخترنا مصيرنا ونحن نتحمله. أحفادنا تنكروا لنا واختاروا طريقا أخرى. بين الاثنين سيعيش أبناؤنا بين الحيرة وبين التمزق. إنهم هم الأكثر شقاء.

فكرر المحامي.

ــ إنه هنا ليسمعكم. تكلموا إذاً.

بعد حركات معبرة عن تردده، أثار جلول ابن الحداد قضية موسى الذي أغلق على نفسه منذ شهور في معصرته.

فسأل القاضي.

ــ بما ذا يتعلق الأمر؟

شرح له أبوه، في لغة الروامة، القضية باختصار.

ختم القاضي.

ــ ذلك القرار غير عادل وغير شرعي. يمكن أن يكسر.

تساءل المحامي العجوز بنبرة ملتهبة.

ــ وما ذا ينفع؟ تلك المعصرة، بالحمير، يعود تاريخها إلى جد موسى. دواليبها المتشابكة أكثر تآكلا من مفاصلي. إنها لن تعود إلى الاشتغال أبدا. أشجاركم المهملة لا تعطي، إضافة إلى ذلك، سوى ثمار هزيلة عظمها أكثر من لحمها، ولا أحد يريد أن يذهب إلى الجني، كما أنه لا أحد يريد أن يستهلك زيتها غير المصفى ذا الطعم

اللاهب.

لاحظت له.

ـــ القرآن نفسه يوصي بزيت الزيتون. إنه دواء يشفي أجسامنا من كثير من الأوجاع.

أضاف ابن جلول.

ـــ غلق المعصرة تسبب في موت عيسى، ووريثه يوشك أن يعرف المصير نفسه. أنا متأكد من أن موسى سيخرج يوم تكون له الحرية في جعل دواليب ماكينته تصِرّ من جديد. ما ذا يهم إذا دارت الرحى في الفراغ. فلنتركه يقرر وحده أن يوقفها أو لا يوقفها. فلنتركه يقرر وحده إذا كان لا بد من الحديث عن ذلك الميراث الإشكالي أم لا. الرحى شاخت ولكن موسى شاب.

اعترض المحامي الصغير.

ـــ نحن نخاطر بأن نخوض معركة من أجل قضية خاسرة مقدما.

ـــ ألم نكن ننعتك، بالضبط، بالمدافع العنيد عن القضايا الخاسرة؟

نهض القاضي من غير أن يبدو أنه لم يتفطن إلى عدم لياقته.

أعلن.

ـــ حان الوقت لمواجهة عمر المبروك.

فأجبته.

ـــ أنت لا تعرف عمر المبروك. إنه رجل شديد وقوي، وغضبه مهول، بينما أنت ليس لك حتى شارب.

ـــ تذكروا مثل المشعوذ: النصر يعود غالبا لمن هو أكثر

عزما. عندي حساب قديم أصفيه مع هذا الرجل.

ـــ من هذا الأحمق؟

حاول السكرتير، المنعقد بسبب خضوع الخوف، أن يخفف من غضب عمر المبروك.

ـــ إنه القاضي.

ـــ أفهم جيدا يا أحمق. ولكن أيضا؟ من أي عائلة هو؟ إلى أي زمرة ينتمي؟ من هو الرجل القوي الذي يحميه؟ إنه لا بد يحوز على دعم قوي كي يأتي لينكدني؟ هل هي دسيسة جديدة من أعدائي؟ لم يكفهم أنهم نفوني إلى هنا؟

ـــ يقال إنه ابن المحامي الصغير.

ـــ آه؟ ولكن هذا الشخص لا يساوي شيئا. متى وصل؟

ـــ منذ شهر تقريبا.

ـــ لما ذا لم أُشعَر بذلك؟

ـــ كلمتك. لم تر ضرورة لاستقباله.

ـــ كان علي أن أفعل. وأنا أشرح الوضعية، كان يمكن أن أتجنب ارتكاب حماقات مماثلة. هل كسر حقيقةً قراري؟ هل يريد أن يخرأ علي أو ماذا؟ إنه لا يعرف من أنا؟ كان على أبيه أن يحذره. ستفوض له حالا شرطيين يأتيان به مكبلا. سأعلمه السمع والطاعة.

بعد نصف ساعة دخل السكرتير من جديد مكتب عمر المبروك.

ـــ أين هو؟

ـــ إنه يرفض أن يأتي.

كيف ذلك؟ هؤلاء البوليس الحمقى يعتقدون أننا أعطيناهم

تلك المسدسات لتسمح لهم فقط ببهر قطّات السوق الكبيرة، وكأنها للمفرقعات. ألا يستطيعون أن يغرسوا فوهات أسلحتهم في كليتي هذا الممثل الفاشل.

ـــ إنه قاض.

ـــ كم من مرة يجب أن أكرر لك أن القاضي الوحيد، هنا، هو أنا. هذا القواد لم يفهم بعد أنه هنا من أجل أن يجعل أولئك القرويين يدفعون ضرائبهم، وأن يفصل في التراعات بين الجيران من الفلاحين الذين تمدنوا. وليكتف فقط بإدانة وبشدة الصعاليك الذين تحضرهم له الشرطة. لما ذا يهاجمني أنا؟ هل هو يحقد علي أو ماذا؟ هل أبوه هو الذي حرضه ضدي؟ كان يمكن له أن يواصل كونه وزيرا لولا أنه أراد أن يكون أحمق. هذا الرجل خطير. سأرسله إلى رأس الجبل ليسكن في خربة جدي حسن. وهكذا يستطيع أن يحقق في قضاياهم مع الثعالب والخترير. أعرف أن المعصرة لم تعد صالحة لشيء وأن قاطني المساكن ذات الكراء المعتدل تعودوا على الزيت الصافية عديمة الطعم التي تقترحها عليه السوق الكبيرة. إنه لشيء أخطر. إن استئناف الحكم يأخذ قيمة تحدٍّ. إن أنا لم أرد فإن الرئيس سيشجعه. أبيض الفم هذا سيعرف مع من هو يتعامل. ليست جبته التافهة هي التي ستحفظه من غضبي.

نط عمر المبروك من كرسيه بقوة فقلب المكتب. ثلاث خطوات كفته أن يبلغ الباب الذي منه أرجح بكتفيه كل شيء أمامه في الرواق الذي هرول فيه زارعا الذعر بين موظفيه الذين كانوا يختفون من كل منفذ ممكن أو يلتصقون بالجدار كي يتركوا الإعصار يمر. خرج عمر المبروك إلى مدخل الولاية وأزاح شرطيي الحراسة من

أمام البوابة واتجه بخطوات كبيرة نحو دار العدالة. عبر كإعصار، مخلخلا كل شيء أمامه، قاعة المداولات، فتش المكاتب، ثم بإشارة من المكلف بالصيانة صعد إلى الطابق الأعلى حيث توجد حجرة القاضي.

إن دخول الوالي العنيف لم يفزع الرجلين اللذين كانا يوجدان في الداخل.

نهض القاضي كي يستقبل الزائر الجليل.

تواجه الرجلان بنظراتهما طويلا.

نقل إلينا المحامي الصغير أن عمر المبروك، بعد ذلك المأزق، لان فجأة، كأنما تحت تأثير فتنة، وقبل أن يجلس على المقعد الذي قدمه له منازعه. كان بلا شك أحس بالانزعاج من كونه يقابل رجلا يستطيع تحمل نظره.

قال له مضيفه.

ــ كنت أنتظرك.

كان المحامي الصغير يتابع المشهد محتفلا.

سأل الوالي.

ــ ما هذه الحكاية.

ــ لم يكن لك أي سبب قانوني للأمر بإغلاق الرحى. طبقت القانون بخصوص طلب الشاكي.

ــ أنا لا أهتم، كما في طيشي الأول، بقضية ماكينة سحق الزيتون هذه. وأنت أيضا، أنا متأكد. أردت أن تستفزني.

ــ أنا هنا من أجل أن أقيم العدل.

ــ عدلك، لا أعتد به. بفضل من ذهبت إلى مقاعد الجامعة،

وألصقت بشدة عجُزك بأعجاز أولئك البنات البسيطات الجميلات متظاهرا بالغرق في دراسة مواد تلك القوانين التافهة أكثر منها معقدة؟ بدون رفاقي وأنا، الذين حملنا السلاح من أجل تحريركم، كنت لا تزال تنظف أحذيتهم من بقايا الروث. لا تنس لمن يجب أن تحمل جبتك.

ـــ أنتم لم تقوموا ضد المحتلين إلا لتخلفوهم؟

ـــ أعتقد أنني قابلتك من قبل.

ـــ لا، أبدا.

ـــ من أنت إذاً؟

ـــ رجل يكتفي بممارسة مهنته.

ـــ أبوك هو الذي يهيجك هكذا ضدي.

ـــ لا، أبدا.

ـــ من أرسلك إذاً؟

ـــ صعلوك جبل قديم: حسن المبروك.

ـــ جدي؟ لقد مات منذ زمن.

ـــ محتمل.

ـــ إذاً، ما هذه الحكاية؟

قام القاضي ونزع البندقية المعلقة في الجدار. قدمها للوالي الذي قبض عليها آليا.

ـــ الرجل الذي يصاحبنا ليس هو أبي الحقيقي.

ـــ من أنت إذاً؟

ـــ وريث البندقية. أنت تتعرف عليها؟

ـــ لا.

ـــ إنها بندقية حسن المبروك. أعلمك أنها معبأة. كف إذاً عن تمسيدها.

تدخل المحامي الصغير لأول مرة:

ـــ أنا الذي رفع البندقية التي تركها حسن المبروك خلال حملته على فيللا الملازم أول، كما حملت ابن وردية التي ماتت خلال الوضع. وردية، أختك.

ـــ أنتم بصدد نسج خرافة. أنا ليست لي أخت. و لم تكن لي أبدا أخت. وردية لم توجد أبدا. تلك الكلبة الداعرة التي ذهبت لتلقي بنفسها في أحضان الملازم أول، ليست أختي.

فواصل الرجل الصغير.

ـــ يجب أن تحترم ذاكرة أختك، لأنها كانت أفضل منك. عرفتها جيدا، أنت تعرف. ويجب أن تقدر المأساة التي عاشتها. إنه الندم الذي جعلك تنكر وجودها. وهل توصلت فعلا إلى أن تمحو من ذهنك، هكذا، تذكار غدرك. تذكر الذي حدث بينكما بعدما أخذتك من بين يدي سوزان، بنت المارصيال. وليالي أخرى أيضا. أنت هو الكلب الداعر. كانت بالحمل لما التحقت أنت بالجبل. كانت تريد حمايتك متجنبة أن تنفجر الفضيحة. ترجت الملازم أول أن يبقيها في الفيللا. هذا الأخير قبل أن يشغلها ككناسة. ولكنه وقع في حبها. اقترح عليها أن تتزوجه وأن يتبنى وليدها. رفضت، خائفة أن ترتد إن تزوجت من غير مسلم. هذه المرأة المسكينة عرفت العذاب. وباتفاق مشترك مع الضابط حرصنا على إبقاء الولادة في السرية. منك أو منه فإن الطفل كان سيعيش منبوذا.

قام المحامي بعد وقت من الصمت.

ـــ أنا ذاهب. إنها قضية يجب تصفيتها بينكما. كنت أعطيت ابنك البندقية التي قدمها لك. أنت الذي يقرر إذاً. تستطيع أن توجه الفوهة نحو القاضي، وتضغط على الزناد، ولن يكون هناك أي شخص يعارضك. لك إمكانية أخرى.

نط عمر المبروك من كرسيه.

ـــ هذا الرجل ليس ابني، ولكنه لقيط وردية القحبة مع الملازم أول.

يقال إن عمر المبروك خرج مسرعا حاملا البندقية. نصب عشرة من رجال الشرطة حول إقامته لمنع الاقتراب منه وأغلق حول نفسه.

بعضهم أكد أنه قتل نفسه، ولكن لا أحد يعرف حقيقة. أنت ابنه، يجب عليك أن تذهب لتعرف.

ها هي حكايتي انتهت بمعونة الله. تستطيع أن توقف آلتك.

بدأت العتمة تغزو قاعة الصلاة هذه. تعال، لنخرج، لنقم ببعض الخطوات في الخارج. انظر، الشمس تغيب. لو كنت تعرف لساني ما كنت لتتأخر عن أن تطلب مني أن أريك ساحة التين. إنها هنا، أمامنا. اختفت الأشجار. أكل قاعدة جذوعها مرض غريب، وفي يوم ريح كبير كانت سقطت، متعانقة دائما كعشاق خالدين. كان وجودنا أيضا متضامنا. إن الجذور لا تزال حية. هاهي البراعم الصغيرة تنبت. هل ستحيا؟

إذا أردت أن تساعدني، أريد أن أذهب لأمشي قليلا في الحقول وأتنفس رائحة النبات. هذه القصة أحيت تذكارات شبابي. كان ذلك منذ زمن..منذ زمن...أعتقد أن بي رغبة للموت.

انتهت الترجمة بين سعيدة وبومرداس: 22 مارس 2005